

مهرجان القراءة للجميع 2000

الأعمال الإبداعية

عبد الحكيم قاسم

قصص قصيرة

الأشواق والأسى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأشـواق والأسـى

اسم العمل الفنى: ميدان ١٩٥٢ التقنية: زيت على سيلوتكس

المقاس: ٨٠ × ٦٠ سم

أدهم وانلى (١٩٠٨-١٩٥٩)

درس الفنون بمرسم المصور (أوتو رينوبيكى)، وعمل مدرساً فى كلية الفنون الجميلة بالإسكندرية، ثم أدار مع أخوه سيف وانلى مرسماً للتصوير، صار مركزاً هاماً يزوره كل مهتم بالفنون التشكيلية.

قام برحلة إلى بلاد النوبة، سجل خلالها مناظر وملابس وأوضاع سكان منطقة النوبة. وله مساهمات فى فن الإخراج الصحفى والرسوم الصحفية والديكور المسرحى.

عرضت أعماله بنجاح ضمن بينالى البندقية وسان باولو. يمتاز بالأسلوب الفنى التأثيرى.

محمود الهندى

الأشواق والأسى

عبد الحكيم قاسم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

الأشواق والأسى
عبد الحكيم قاسم

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : **محمود الهندى**

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشـباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وأمهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

قريتى

اسمها البندرة مركز السنطة غربية • قد تجدون الاسم ثقيلا ، لكنه ـ لو تعلمون ـ كان كل متاعى حينما بدأت أعـرف السفر الى المدينـة • كنت أقوله للناس الذين ينظـرون الى مستفسرين • كنت أقوله مترددا هامسا ، لكننى كنت أقوله دائما ، ودائما كان الناس يبتسمون ويعلقون :

ـ فلاح ••!!

عم الشيخ بكر مؤذن المسجد الجامع يقول :

ـ بندرة •• يعنى بنـدر •• بلدنا كانت زمان بندر كبير ••!

ويؤكد أنها كانت ميناء عظيما على فرع النيل • لكن النهر تزحزح تاركا القرية للنسيان • واذا أبدى السامع دهشة من حديث عم بكر ، استشهد أمامه بما حدث عند حفر المصرف الكبير • انهم عثروا على بقايا جدران حجرية ، وأوان فخارية ، وقطع عملة برونزية، ألا يـدل هـذا على أن بنـدرا كبيرا كان السلف الأول لقريتنا ذات الدور المبنية بالطـوب الأخضر • يسكت السامع مستسلما أمام حجج عم بكر وحماسه ، وعم بكر يبتسم حينئذ ويهز رأسه متباهيا :

ـ البندرة •• غندرة •• البندرة غندرة ••!

على رصيف محطتنا لافتة أسـمنتية كبيرة مكتوب عليها اسم البلد •واذا وقف الواحد على الرصيف ومد بصره بعيدا فسـيجد القرية متكومة على نفسها قابعة فى منخفض من الأرض ، وعلى جـانبيهـا من الشرق والغرب ضـفتان من الحقول مرتفعتان عنها ارتفاعا كبيرا • وسـيجد الواحد مسـتنقعا شاسعا يكتنفها من ناحية الشمال • هل يدل هذا على فرع النهر الذى مر من هنا يوما والذى جف وتحـول مجراه ، والذى تقع قريتنا فى قاعه القديم ••؟

مرة كان عم الشيخ بكر يدير الطنبور ليسـقى أرضه ، واذا به يتوقف • أطرق قليلا ، والماء المتدفق من فوهة الطنبـور الى القناة انحسر عن سيقان أربع لعم بكر وزميله الجالس أمامه يدير معه الطنبور • قال عم بكر لزميله الجالس قبالته بعد تفكر قليل :

ـ هل تعلم •• نحن الآن ندير طنبورنا فى شباك بيت العمدة •• !

فبيت العمدة أعلى البيوت ، وغيط عم الشيخ بكر اكثر الغيطان بعدا عن الدور •

يرحمه الله عم الشيخ بكر • لقد كف بصره ، لكن بقيت له معرفته بالاشياء جميعها ، حتى لقد كان يوقع بامضائه عند الصراف •

يرحمه الله رحمة واسعة • كان يقول عن قريتنا انها ثقيلة الهـواء ، والرجـال حـوله حـائرون غير فاهمين ، لكن وجهه الخراب يعطى الكلمات معنى أليما• قريتنا مـدفونة فى منخفضها هـذا تتجاوزها الرياح الناشطات وتتركها زخماء كئيبة أيام الصيف ، ثقيلة بالملل الممض • الظهيرة تكبس على الصـدور بالصهد وابخرة المستنقع • أين المفر ••؟ الناس يرقدون عند

أقدام الجدران • الكلاب تلهث مـدلاة الألسن مغمضة العيون •

وعندما تميل الشمس يخرج المرضى الى طـراوة العصر • كم تدمث العلة طبائع الرجال • يسلمون فى صوت خفيض بالود والمرض • نحيلو السيقان والسواعد والأكتاف ، منتفخو الكروش ، صـفر العيون ، جلود وجوههم مسودة مبقعة • فى قريتنا عشرون مريضـا بالاستسقاء • عم بكر يقول :

ـ اذا تلف الطحال ••• تلف الرجل •

يرحمه الله كان ممرورا تبقى كلماته فى القلب • كانت مقلتاه المطموسـتان حافلتين بالعمى ، وملامح وجهه مشلولة بقهر لايوصف • يقول عن الأحشاء :

ـ الأحشاء تناول بعضها بعضا •• مثل قواديس الساقية •• ان تلف واحد •• فلا حول ولا قوة الا بالله •• لاتجدى الكتابة •• لاتجدى الحجابة ••!

واذا يقـول تلتوى شـفتاه سخطا ، واذا تلتويان تكشران عن ثنيتين تراكم على جذورهما اصفرار الجير • لكن النساء كن يمشين الى كاتبى الأحجبة ، وكن يذبن

الأحرف المكتوبة بصبغة الزعفران على قلوب الصحاف البيض ، وكن ينثرن الماء على العتبات والأركان والزوايا المعتمة •

فالدور فى قريتنا كالجحور • اذا تنحدر من العتبة الى وسط الدار تتسع حدقتا عينيك ، تتلمسان الضوء فى العتامة • تكبس عليك الرطـوبة العفنة من ركن الزير • ومن أصول الجـدران الطينية • ومن السقف تتدلى ذوائب الحطب جافة متهرئة • من القيعان تتهادى أرتال رائحة خاصة ، وتصك السمع أصـوات غـريبة مبهمة • رتيبة عميقة أو هى مرتجفة واثبة • ربما من مثوى البهيمة فى الزريبة ، أو من أختان الأرانب أو أعشاش الدجاج أو بنانى الحمـام تأتى تلك الروائح والأصوات •

واذا أردت أن تجـوس فى الدار لوجـدت سـككا تنسرب بك الى أركان تكاد تظلم تمـاما وتفعم بالنتن والغموض • والأغلب أن تقبض يد على ذراعك تحوشك ، تجنبك هذه الأركان • فهذه الاركان تسكنها مخاوف ذات اسماء ، ثعابين ، أو حشرات غريبة • أو حيوانات عجيبة ، أو عفاريت • والناس الذين ماتوا هنا تركوا

بصمات حيواتهم على القلوب والعقول · وهم مازالوا هنا أرواحا تدور وتتكلم وتكمن وتتربص · الرجال فى الباحات على رؤوس الحارات ، وفى هذه الدور النساء · عصائب سود · دبيب فى نواحى الدور لايكل · غناء بصوت كئيب · بكائيات ورثت جيلا بعد جيل ، مثل عقود العقيق ، وخلاخيل الفضة ·

لكن فى ساعة معلومة من يوم معلوم بين أيام الجمعة السبع ترتعش القلوب شوقا ، وتنشط النساء للاستحمام · يسيل الماء الساخن من أباريق الفخار السوداء على أثداء بيضاء من كثرة ماخزنت تحت الثياب الثقال ، من كثرة ما اشتاقت للحب · وبعد الحمام تلبس النساء الأحمر والأخضر والأصفر ، ثم يخفينه تحت طيات الجلابيب السود · تخرج النساء زرافات من قيعان الحارات الى محل الزار · هناك ترقصن رقصات وحشية على وقع دفوف راعدة حتى تسقطن هامدات · حينئذ تسيل دماء ذبائح الفداء ، حمامات مزغبة أو فرائد بط سمراء لامعة الريش ·

الرجال فى الباحات على رءوس الحارات يطرقون واجمين · دفوف الزار البعيدة زلزال لايهزك فى مكانك

لكنك تحس به من بعيد مروع القوة ، ماشيا فى العروق الى القلوب · ياستار ·· فى المساء سيعود هؤلاء الرجال الى الدور ، الى النساء المخضوبات الأكف والكعوب بدماء ذبائح الفداء · تتجمد ملامح عم بكر ، وتتجمد ملامح وجهه وهو يقول عن النساء :

ـ سود العصايب ··!

لكنك لم تر عم بكر وهو خارج من قاع الدرب مطمئنا طلقا مشرقا على حمارته الصغيرة العارفة ، سارحا الى حقله الذى يقع عند آخر الزمام · القلب يسمع خفقات الحوافر فى التراب الناعم ، والأعضاء تستريح لخضخضة السير الوئيد ، والوجه المجدور ينعم باشعاعات الشمس الصبحية ولمسات النسمات الباردة · الشوق مبهم · هو حيرة ، هو هم ، أو هو فرحة مخنوقة ·

كف البصر ، لكن فى قلب عم الشيخ بكر مايزال الصبح يشرق ، ويغسق الليل ، وتقف الجميزات القدامى ـ كما كانت أيام نعمة البصر ـ على شطئان القنوات التى تتقسم امتداد الزمام ·

يرهف عم الشيخ بكر الحس للذع البرد ولفح القيظ • يرهف السمع لوشيش الريح فى هامات الشجر • الأنواء تتقلب على الحقول الممتدة ، ومع تقلبها تتقلب المخاوف فى الصدور • الرجال منحنون على اسمرار الثرى وأكف الفئوس دؤوبة ، والشفاه هامسة ، يارب الزرع والحصاد ، أنت تعلم ، العيال يعيشون على المحصول •

يعرف عم الشيخ بكر خطوات فلاح مقبل عليه صاخبا بالسلام • يعرف عم بكر الرجل اذ يقبض على معرفة الحمارة يوقفها ، يعرفه اذ يتكلم كأنه يقول :

ـ البنات يصبصن من الشقوق ••والبرد يتربص به ••!

يطرق عم بكر قليلا • يتشرب قلبه القلق الأليم • يقول مترنما :

ـ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها الا هو ••!

يطلق الفلاح الحمارة تمضى حاملة عم بكر الصامت المتكدر الصفاء بالفيوم •

وأنت لم تسمع عم الشيخ بكر اذ يؤذن للصلاة من يوم الجمعة • يبدأ صوته رقيقا خفيضا ، ثم يتحول قويا دؤوبا متواصل الموجات • ينسرب بين الدور ، يسرح الى الحقول ، يصل الى القلوب فى دائرة قطرها ألف ذراع • يجمع الناس ، يلمهم الى المسجد الجامع • يلقى الرجال من أيديهم مايشغلهم من فؤوس أو مقاود بهائم ، يضعون نعالهم تحت آباطهم ويهرعون الى المسجد الجامع • صوت عم بكر لايكل ، يظل متوسلا ملحاحا والناس يسرعون ويسرعون • مايكاد عم بكر يختم الآذان مصليا على النبى حتى يكون الناس قد اكتملوا تماما جالسين على الحصر حول عمد المسجد الأربع الضخام •

صوت القارىء الذليل يرف بآيات سورة الكهف فى جنبات الجامع ، بطانة رثة لصوت عم بكر الطائر فى سماء القرية منطلقا من فوق سطح المسجد • لكن الصوتين معا متفاهمان متبادلان يصنعان تناغما يملأ القلب وجدا وأسى •

كنت أحتفظ بأحسن جلابيبى لصلاة الجمعة • يومها كنت أستحم • أسير مع الناس نحو المسجد ذائبا أدبا • أتأمل قدمى النظيفتين فى شبشبى • أجلس على الحصر

بين صفوف المصلين مطمئنا فى عتامة المسجد الخفيفة الندية وبين الناس الطيبين الهامسين بالتسابيح • الآذان والتلاوة تغمر القلوب فتهمى بالاستغفار • قلبى مشوق الى لحظة يتدفق فيها المصلون خلف الامام فى صوت مثل نهر هادر :

ــ آمين ••

لحظة خارقة العمق والجلال ينسحق تحت وقعها المدمدم احساسى وترتجف فى أعضائى فرحة تحلق حول صوت عم بكر المتميز فى نهر الأصوات الزاخر •

بعد انقضاء الصلاة يخرج عم بكر • وجهه مطبوع فى قلبى • جبينه مترب من أثر السجود • ملامحه حالمة قريرة • عيناه المطموستان خرساوان كخرزتى عقد رخيص • لاينظر ، كأنما أغمض عينيه أنفة • يسعى لايحذر ولا يرتاب ولا تخبط يداه فى الهواء خبطا متلمسا باحثا عشوائيا ، بل تلزمان جنبيه فى سكون ، وشفتاه تلتويان فى ألم مبهم واهن كظيم •

فى العصر تلعب النسمات فى الباحات لعبة عفرة ، ترقص فى شقاوة بالوريقات الجافة • يجرى العيال

يطاردون كلابا ذليلة العيون • الرجال يسندون ظهورهم الى الحيطان • يحدقون فى الامتداد الناشط بحياة متخبطة عاجزة حزنانة • يضم الرجال بالأذرع المتعبة سيقانا قائمة مركوزة ، يردون السلام محاذرين وعم بكر يسأل :

ــ من جاء ••• من راح ••؟

فالشارع قد يسفر عن قادم غريب جسور الخطوة جهم مصعر الخد يرشق السلام فى العيون الكسيرة • والشارع قد يسفر عن قادم غريب متردد دمث دهش العينين يقرىء السلام فى رجاء • الناس فى الحالين يلبون السلام طيبين وخائفين •

يسأل عم بكر : من جاء ؟•• فى أى دار يحط الرحال •

تنزعج المخاوف فى القلوب كذبذبات محبوسة ، وتبقى الوجوه جامدة لاتبين اذا تتعلق الأبصار براجل يحمل سلته الصغيرة ، وخلفه تنكسر أشباح المودعين حاملين باقى المتاع يكفكفون الآسى والاشفاق • تبقى الوجوه جامدة ، لكن عم بكر يسأل ملهوفا • حينما يسمون له المسافر يهتف مشجوح الصوت ثاكلا :

ــ ياولداه ...

ماأقسى أن ينفرط من حزمة القلوب قلب . تتوه به الطرقات فى المفازات ويبقى مطرحه خاليا فى حلقة الرجال ..؟

حينما حملت سلتى مسافرا توخيت أن يكون ذلك فى قلب الليل بعد آن لملمت القـرية ناسـها الى قيعان الدور ، دخلت الباحات الا من خطـو أعمى يتعثر فى تلافيف العتـامة . لم أكن أريـد أن أمتحن بنظـرات الرجال الجالسين عند أقدام الحيطان ، ولا بهتاف عم بكر الباكى القعيد .

ليلتها صعد بى الطريق الى المحطة والقرية خلفى تنزل وتخور ، ونجمات رائقـة تترقرق على عـرائش الحطب . والقلب يخفق وئيدا مثل ايقاع أقدام عم بكر الجلدة الحافية تصعد الدرجات الى سطح المسجد فى صمت الهزيع الأخير من الليل . يهمس فى الفؤاد دعاء الفجر اذ يترسل فى الخلاء الندى .

★ يامن يرى حالى ويعلم غربتى ★

وكانت كل يوم تصـعد السلم الطينى درجـة .. درجة ، حينما تكون الدنيا وقت القيلولة وكلهم نائمون، والدجاجة السوداء العتيقة نكشت بمنقارها وأظافرها حتى صنعت لنفسها مهدا صغيرا نامت فيه منفوشة الريش مغمضة العينين مفرجة المنقـار لاهثة الأنفـاس ، يكاد تنفسها أن يسمع فى صمت الدار .

تصعد السلم درجة درجة جامعـة أطـراف ثوبهـا الأسود حتى لايحف بالدرجات ويحدث صوتا . ينفرش قدمها المعروق على بسطة الدرجة اذ تدوس ، ويتقبض اذ ترفعه ، تماما مثل مخلبى الدجاجة السوداء العتيقة .

ويصدم رأسها عود حطب مدلى من العريشة • يحدث الاصطدام ضجة مهولة • تتحرك رأسها يمنة ويسرة مفتوحة الفم لاهثة كالدجاجة السوداء العتيقة اذا ما أصابها الرعب • ثم تخبو أصداء الضجة الكبيرة فى رأسها ويهدأ تهدج صدرها وتواصل صعود السلم بحذر أشد • مسكينة أنت يامبروكة ، لماذا تخافين هكذا ••؟ انك فقط •••! نعم ، لكنهم لايتركونها فى حالها ، يسخرون منها لو رأوها ، تلذعها سخرياتهم كالسياط ، مع أنها حينما تفتح صندوقها تفتح بابا صغيرا على عالم جميل •

يقولون عنه باستهتار :

ـ انه صندوق مبروكة ••!

ولا يبالون أن يصنعوا عليه حتى قفص الفراريج • ترفع القفص وتنحيه بعيدا • تمسح بكفيها بل وبطرف ثوبها ظهر غطاء الصندوق العزيز الذى كان يوما ما مصفحا بالصفيح البنفسجى الجميل ••• كان يوما ، ومات من حياتها مع أنه كان أجمل يوم •

لكنهم يسخرون منها ، بل أحيانا تقول زوجة أخيها وهى تطوح بيدها فى الهواء :

ـ أشياؤك الجميلة فى الصندوق . تحرمينها على نفسك وعلى العيال •• خلى بيننا وبينها ولك الثواب عند الله •• العيال عرايا ••!

تصنع من حاجياتها جلابيب للعيال ••؟! ياربى ! تكاد من الرعب أن تصرخ • لكن مالنا وتلك السيرة الآن • انهم نائمون • حتى عفاريت الأرض هاجعة وأمامها ساعة تفتح فيها صندوقها وتتملى من أشيائها وتروق نفسها من الهموم الكثيرة •

رفعت غطاء الصندوق ركنته على الحائط • تراقص خيال وجهها على الصفيح الفضى الذى يبطن داخله وسمرة وجهها على لمعة المعدن ملامح قبيحة تلاعب بها السطح اللامع غير المستوى • لهم حق عندما يقولون عن قبحها ويقولون • لهم حق ، لكن هو كان يحب وجهها ، هو خير الرجال •

كان الصندوق مزدحما بالصرر كبيرة وصغيرة • وكان ثمة أشياء أخرى كثيرة ، قطع من شرائط حمراء وخضراء ، كسرة مشط ، زجاجة زيت فارغة لكنها مازالت فواحة • تناولت الزجاجة وشمتها وتنهدت ثم

أعادتها الى مطرحها · أخذت قصقوصة قماش موردة نفخت عنها سنة تراب فتألق لونها ·

والصرة الكبيرة ··! نفضتها مرتين وتحسست طراوتها · حلت عقدة الصرة فتجلى صبح عقيقى · طيات الحرير الأحمر تستقبل الأشعة الوانية ، تهدهدها على صدرها الرجراج ثم تردها الى باطن غطاء الصندوق تشعشعه بلون كلون خدود البنات ·

تمسح يدها سبع مرات ثم تمدها الى الثوب تأخذه اليها تطرحه على قدها ، الصدر على الصدر والحرير على قماش ردائها الخشن · تنبثق تحت وقع قطرات الشمس الساقطة على الثوب اشعاعات وردية وذهبية تهيم متساندة على الذرات الطائرة فى هواء الغرفة حتى تعلق على الحيطان · ملمس الثوب الناعم على يديها يرسل فى كيانها نعومة حريرية ، يوم زفافها كانت مغمضة العينين فلم تر لألاء الثوب الباهر هذا فى ضوء القلوب ··· يومها ·

رمت بناظريها الى هذه الدرجة من السلم حيث وقف بجوارها · همسته لازالت فى أذنها وأنفاسه اللاهثة لازالت على رقبتها :

ـ أنا الذى اختار لك الثوب الأحمر ··!

قال هذا وهبط يجرى قبل أن يراه أحد متلبسا بمخاطبتها ولما يتزوجا بعد · نعم ، كان ذلك على هذه الدرجة من السلم · يومها دق قلبها ، تسندت على الحائط وهبطت السلم الى وسط الدار حيث المصطبة · لكن ذلك كان فى اليوم التالى ، وعلى المصطبة جلس أخوها يدخن الجوزة ويحدث جلساءه عنه وعن عباطته :

ـ أمسك الثوب الحرير الأحمر لايفلته ·· قلنا له انه غالى الثمن ·· قال لابد أن يكون منه جلباب فرحها ·· يابنى انه غال ·· قال حتى لو بعت من ارضى سأشتريه لها ·· اشتريناه !

عبيط ؟!ألأنه تزوجها ؟! ألأنه وضع كل هذا الفرح فى قلبها ! ألأنه اشترى الحرير الأحمر ؟! انه أحسن الرجال ! ثم دمعت لنفسها ·

ودمعة اليوم موصولة بدمعة الأمس ـ ياحبيب عينى ـ تتهادى ساخنة على الوجنات الذابلة حتى تستقر فى أخدودين غائرين على جانبى الفم · مكتوب

ذلك مكتوب • فرح سابعه مأتم وعمر كليل الشتاء وصندوق يحوى جهاز عروسه فى ركن غرفة على السطوح • لكننا جئنا لنفرح ساعة لا لنبكى يامبروكة •

هذا هو المنديل اللبنى • ليلتها كان المساء غبشا حينما سارت فى الزقاق ترفعها الكيمان وتتلقاها الحفر الى دار الدمرداشية :

ـ طرزيه لى يانفيسة ••!

وقالت نفيسة وهى تقلب قماش المنديل :

ـ خسارة •• خسارة هذه الأشياءالحلوة فى هذا الرجل !

وطبطبت مبروكة على يد الدمرداشية متوسلة :

ـ لاتقولى هذا •• انه سيد الرجال •

ثم وضعت فى حجرها قرشين •

وهو امسكه من هذا الطرف ، كان فى يده خضاب، وعلى ظاهر الكف وشم أسد يمسك سيفا • وباليد الأخرى أمسك المنديل من هذا الطرف • ثم عصبه على رأسها بنفسه • تملت فى المرآة ذات الرجلين المعلقة على الحائط • ضحكت للعصبة الماثلة على حاجبها وخبطته على ذراعه قائلة :

ـ أأخرج على الناس هكذا ••؟

ورد هو مؤكدا :

ـ أنا رجلك وأريدك أن تكونى جميلة ••!

أمها فقط وهو عصبا لها المنديل ودللاها هكذا ، وقد ماتا •• آه •• بعد يومين من موتهذهبت الى الجبانة وبيضت قبره بالجير • قالت للمبيض أن يرسم عليه أسدا يمسك سيفا ، والرجل ضحك ثم رسم • كان يحب هذه الصورة رسمها على ظهر يده وعلى حائط غرفة الفرح •

فى غرفة الفرح ، ليلتها ، كان ضوء المصباح خفيضا • تمددت الى جواره على الحشية فرحانة فى القميص الوردى • التفت الأسد الذى على الحائط ناحيتها وضحك • وهو مد يده بحذر وتحسس بطنها ، ثم جذب يده بسرعة وهو مكسوف حيران • أحبته كطفل حينما توسد ساعدها ودفن وجهه فى صدرها وراح فى النوم ، مضت ليلتها بلا أسرار ، وعريسها نائم على صدرها ، والصبح يسند خده على الشباك •

كم كانت عبيطة • كم أغضبها أن يتهامس البنات عن أسرار هذه الليلة ولايخصوها بشىء • ينفونها عن

دائرتهن · تمضى الى الترعة تحمل جرتها على رأسـها وحيدة والبنات هناك مجتمعات · ظنوا أنها لقبحها لن تحظى بعريس · بكت لنفسها · لكنها فى ليلتها هذه ضحكت · كانت الليلة بلا أسرار ·

طـوت القميص الوردى وصرت عليـه وعقـدت عقدتين ·

والمكحلة ، زجاجتان مغـروزتان فى وسـادة من الحرير وعلاقة طويلة كم تدلت من المسمار المثبت فى الجدار · والزجاجتان ، واحدة للكحل الأزرق الحامى ، والأخرى للأسود البارد · لكنها من يومه لم تتكحل ، من يوم أن مات ·

قالوا كانت شؤما عليه قتلته بشؤمها ، لكنها لم تصدق · كانت تحبه كطفل · كان ينام على صدرها كطفل · قالوا قتلته وجاءوا الى المعزى · جلسوا فى المضيفة قليلا واجمين ينصتون لسورة قرآن ، ثم أطفئت المصابيح ، وعادوا الى دورهم ناسـين · كان ذلك من سنين ، سنين تموت فيها من أجله كل يوم ·

كل يوم تصعد السلم الطينى درجة ·· درجة ، الى

حيث صـندوقها ، كنزها الذى فى ركن الغـرفة على السطوح ·

القيلولة منعقدة نارا والصهد مفروش على التراب وهى عائدة من كد اليـوم فى حقـل أخيها · النـاس نسوا . فقد كان ذلك من سنين ، يوم الفرح ثم الصباحية وخمسة أيام بعدها ثم مات ، ونسيه الناس ، وتركوها وحدها تلوى ·

هاهى الدار ساكنة والدجاجة السمراء تلهث آمنة فى مهدها · لكن ثمة فى الغرفة على السطوح أصوات عيال وزياط وهيصة · طارت فزعة تصعد السلم قفزا وترى أحشاء الصندوق مبعثرة على الأرض ·

سقط فكهـا وتصلب لسـانها فى فمها وأسرعت لهثاتها والتهب جلدها نارا · زوجة أخيها تبعثر كلمات غير ذات معنى عن العيال وحاجتهم لكساء وهى لاتسمع ولا تصرخ من الرعب ، فقط تسـتدير عـائدة الى الحقل ·

عـادت تحيـا حيـاتها · عمر كليل الشتاء دون صندوقها ، دون الساعات القليلة التى كانت تروق فيها نفسها من الهموم الكثيرة ·· الكثيرة ·

ليلة شتوية

شجرة السنط العجوز العارية أنت بمـذلة وهى تميل من الريح • ليس فى السماء نجم واحـد يرسل عليها شعاعا من ضوء حتى تعرف نفسها وسط أكداس الظلام •

الشبابيك الهـزيلة أغلقت على الدفء والضـوء الشاحب • لكن صفير الريح ينفذ من الشقوق ومن خلال الجدران • الخـوف ينفذ فى القلوب كالخيط فى حبات العقد •

على ظهور الأفران ـ فى الغرف الثقيلة الهواء ـ لفت العجـائز بالطرح السـوداء وجوههن الزبيبية ،

وحكين حكاية عويل الريح للأطفال ، والأطفال عيون مفنجلة لا أثر فيها للنعاس ، وقلوب مبهورة تشرب الحديث • على وجوه النسوة المجهدات خصلات شعر شعثاء مبلولة تلصق بالجبهة وبالأصداغ • سهم الرجال العقلاء فى المنادر المضاءة بالفوانيس وسبحت نظراتهم على أمواج الضوء الشاحب • لاحول ولا قوة الا بالله•

فى زريبة «صديقة» كانت نعجة تعانى المخاض • لاتدرى من أين ياتيها الوجع • هى أصابع حديدية تجوس فى جسدها وتقبض بلا رحمة على أحشائها • تهب النعجة واقفة وسط أخواتها النائمات حولها • يحدث قيامها ثغرة فى كتلة الدفء المفروش على أرض الزريبة • ترتجف النعجات وتتدافعن وتتضام أجسادهن حتى يغلقن الثغرة ويطردن النعجة المكروبة خارج كتلتهن . فتقف وحيدة غارقة فى الظلمة • يتسلل البرد من فروتها ويسفعها فى أذنيها وتحت ذنبها • الوجع ينبض فى كل عرق من جسمها • يخرج الثغاء من أعماقها كآهات انسان يتمزق •

أتت «صديقة» على الثغاء الباكى • فى يدها لمبة ذات شعلة تصنع كرة من الضوء تنزاح لها عتامة جوف

الزريبة الى الأركان • هناك نام الصمت على صدر الظلام • وهى وقفت فى الضوء ، طويلة ، عريضة الكتفين ، ممسوحة الصدر ، قصيرة الشعر ، عارية الرأس ، عليها جلباب أسود خشن ، تتدلى على أصداغها الصخرية خصل شعثاء تستضىء بشعاع أصفر •

فى جوف الغرف كانت الجمرات من حطب القطن تتقد وتلتهب وترسل لظاها أحمر مسودا على الحنية • يسخن الحصير الأبيض تحت الجالسين على ظهر الفرن فى الغرفة المغلقة الشبابيك • العجوز كومة من قماش اسود يطل منها وجه مثل التينة الناشفة • كلما هبت موجة من عويل الريح ارتجفت الكومة السوداء وتقلصت الثنيات فى جلد بطنها المكرمش :

ــ أتسمع •• ليس الريح مايصفر هكذا •• بل هو أبو جبة •••!!

والصبى الصغير احتضن رجليه النحيلتين مريحا ذقنه على ركبتيه سامعا الجدة وقلبه يميد من كلماتها :

ــ انها قتلته ••• فى مثل هذه الأيام •• قبل ثلاثين عاما ••• فى الحسومات •• عضت على زوره

بأسنانها ·· وكزت ·· وكزت ·· حتى التقت الأنياب ··· وطرطش الدم على جسر الترعة ·· ومن المعاد الى المعاد ·· فى الحسومات ·· فى قلب الليل يسمع أبو جبة يعول ··· يعول ··!!

واللسان الأصفر المضيء داخل زجاجة المصباح مال جانبا · استطال واسود طرفه · أقبلت العتمة من الأركان لتخنق النور · لسعت الأنوف رائحة البترول المحترق · استقام اللسان المضيء مرة أخرى تاركا بصمة سوداء كالكذبة على جدار الزجاجة ·

الليلة الشتوية خارج الدور تزحم الآفاق بالظلام والعويل كآلاف من الذئاب الدهم · يتدلى فانوس مندرة الرجال من السقف صغيرا مسكينا شاحبا · ثقل الصمت · مال الفانوس المشنوق فى وهن · مرت أطياف سمر شفيفة مبتورة الرءوس على الحيطان · لبد الطفل الصغير فى جنب أبيه مذعورا · خرج صوته مشروخا :

ــ ··· أهى ·· كزت على زوره بأسنانها حتى التقت الأنياب ··!!

ربت الأب الكبير على الطفل الخائف وأطرق فى أسى وإشفاق ، تسبح نظراته على أمواج الضوء الشاحب :

ــ ثلاثون عاما يابنى ··· والعجائز قاعدات على ظهور الأفران ··· والريح تعول فى الخلاء ·· وليل الشتاء طويل ···!!

انصبت النظرات الحانقة على المتكلم من كل جانب :

ــ تراه اذن كلام عجائز ··؟!

ــ ولا ترى ثأر الله على خلقتها ··!

ــ وماسوف يحل بها لهو أعظم ··؟

ــ سوف ينبت الشعر فى وجهها ·· والأنياب فى فمها حتى تصير مثل ضبعة ··!

ــ ثأر الله ·· اذ أفلتت من ثأر الحكومة ··!

لكن الرجل ظل شاردا معلق البصر بالضوء الشاحب :

ــ هناك يابنى ، كانت قاعدة تحت شجرة السنط · شجرة صغيرة فروعها محملة بنوار أصفر يتلألأ فى ضوء الشمس · قلت لها «سلام ياصديقة» صبية صغيرة

مستحية مثل وردة · أسبلت طرحتها على وجهها حياء وردت السلام · كان هذا فى اليوم السابق على الواقعة· صارت الشجرة عجوزا عريانة ·وحيدة على رأس الحقل· تميل من الريح ··!! لازال الوهج يموج أحمر قاتما فى جوف الفرن · والمرأة المجهدة الوجه دلت ساقيها وباعدت بينهما ورفعت ذيل جلبابها وخلت الصهد الطالع من الفرن يدفىء بطنها ومابين وركيها · سرحت قليلا منصتة لعويل الريح ثم التفتت الى أختها تحدثها عن صديقة :

ـ لو أنها كانت تزوجت ·· ربما كان الزواج قد ألان طبعها قليلا ··؟

ـ ومن كان سيتزوج قاتلة أبى جبة ·· القاتل الذى دوخ رجال الناحية ··؟

ـ ياربى ·· لقد أصبحت مثل رجل ·· وكل يوم تزداد دمامة ··!

ـ مكتوب عليها ·· مكتوب ··!

النعجة تثغو ثغاء موجعا · تنزل الدموع من عيونها الزجاجية · صديقة قابعة بجوارها تسند البطن المدلى بكفيها من اسفل · يسقط الضوء على الوجه الصخرى ذى الجلد الملوح الملىء بالندوب · يتقارب حاجباها الكثيفان كأنهما شاربان صغيران لم ينلهما ابدا حف أو تهذيب ·

صحت العجوز أم صديقة على صوت الشاة · الغرفة مكبوسة بالظلام · تحسست ولم تجد ابنتها بجوارها تحت حرام الصوف · خرجت تخوض الظلمة الى الزريبة · هناك رأت أكتاف ابنتها الرجولية مرسومة على الضوء الشاحب · تحرك قلبها تألما من أجل ابنتها :

ـ آه يابنتى ·· ياحبة قلب الأم المسكينة ·· الله يحاسبهم ·· قتلوك ·· ومازالوا يقطعون جسدك على الأفران فى الليالى الشتوية ··!!

وظلت تحدق فى الضوء الشاحب حتى ترقرقت فى عينيها الدموع :

ـ الفأس لاترحم ·· ربعت الأكتاف ·· وضعت وسائد من الجلد الميت فى باطن الأكف ·· يدان لم تلينا ابدا بعجين فيه سمن ·· ولا بضرب القشدة فى البرام الفخار ·· أنواء الغيظ ياحبيبتى وكلام الناس ··!!

قبل تلاثين عاما لم تكونا وحيدتين ـ صديقة وأمها ـ كان معهما محمد • كانت دارا سعيدة • كانت صديقة عروسا حلوة يحبها أحمد ويعد داره لعرسهما • أراد أبو جبة أن يفرض اتاوة على هذه الدار السعيدة المبيضة الجدران• لكن محمد قال فى نفسه : «أنا صنعت سعدى بيدى ، بالفأس تحت وطآة الظهيرة • ليس لأحد عندى شىء»

أقبل أبو جبة على محمد يحمل البلطة القاتلة :

ـ محمد ••!

ومحمد قام له :

ـ نعم يابو جبة ••!

ـ عليك اتاوة من القمح ••!

ـ لا •••!

لأنه عار أن يخاف الرجل من الرجل • والبلطة فى يد أبى جبة لاتقصر أعمار الرجال • لكن البلطة نزلت فى جبين محمد الى مابين الحاجبين • انكفأ ساقطا على جسر الترعة تحت شجرة السنط الصغيرة • وعامت النوارات الصفراء الصغيرة فى تيار الدم النازف من

راسه • وكانت النعجات متكومات فى بطن الجسر وقد قامت عليهن صديقة وفى يدها عصاها الغليظة •

لم تعرف كيف تم هذا لكنها جندلت أبا جبة بجوار اخيها • حبست فى سجن المركز أياما طويلة • سألها الافندية أسئلة كثيرة • قالت لهم على الذى حصل • لم تخف شيئا • قالوا لها : اذهبى • عادت الى الدار •

والدار من يومها لم تسمع ضحكة ، لا ولا صوتا ماليا غير ثغاء النعاج وقراق الفراخ • سقط البياض من الحيطان لم يره أحد • أحد راح حط على نوارة أخرى• من يتزوج قاتلة ••؟

النعجة تباعد بين ساقيها ، تحفر الأرض بيديها ، وترفع ذنبها لأعلى وتخفض مؤخرتها وتكتم أنفاسها وتتشنج عضلات بطنها ثم تبول بولا مخلوطا بالدم • وبعد ذهاب الطلقة تثغو ثغاء كالنواح • تزفر صديقة :

ـ تجلدى •• يامسكينة ••؟

وتمسح بطن النعجة فى حنان •

كبت الجمرات فى بطون الأفران • غضت عيون

المصابيح · تكوم الناس على الحصر الساخنة · من السماء ينز مطر يضرب حطب العـرائش فى ايقـاع خافت متردد · العناصر تسترد أنفاسها بعد عربدة مروعة ·

يعود الطلق · يتصلب جسد الشاة ويتفض صوفها عرقا · يتدفق الدم فجـأة · تعبق الزريبة بالرائحـة اللزجة · رائحة الدم · تسرع أنفاس صديقة وتضطرب حركاتها · ثم ينزلق الوليد طفلا من الغنم أبيض دائخا مخضوب الصوف ·

وشعاع من الضوء يمسح أكداس الظلام عن شجرة السنط · تبدو عجوزا ذليلة مبلولة · ترتجف الدموع على رموش صديقة وهى تحتضن الحمل الطفل ، وتمرغ وجهها فى صوفه الناعم المخضوب :

ـ يابنى ·· ياحبيبى ·

يمشى فى صدرها المجـدب خدر ناعم · تجـرى الدموع حارقة على الوجه الصارم ذى الندوب · يتدفق النهار من الأفق الشرقى · تثغو الشـاة الأم ثغـاء فيه فرح مجهد كليل ·

لم تنم ، باتت ليلها آرقة تتقلب وتنظر للعيـال · حينما صاح أول ديك هبت واقفة · رفعت شريط المصباح فملأ الضوء الغرفة · أخذته من على المسمار وخرجت به الى وسط الدار ·

السلة على المصطبة فيها ماخبزته مسـاء الأمس · لابد للمسافر من الزاد ، فان خبز البنادر مغشـوش · دست يدها فى طاقة الجدار أخرجت المنديل المعقود على النقود · النقود هى كل شىء ، من ضاعت منه ضاع · قبضت على المنديل ووقفت محتارة · أخيرا أحكمت وثاقه فى تكة لباسها ، هاهنا سيكون فى أمان ·

دخلت مرة آخرى على العيال· مبعثرون على الحصير · تأملتهم هنيهة ، ثم زفرت :

– ياولادى ··!

أخذت جلباب سفرها الأسـود من على وتد مرشوق فى الحـائط · أحست البنت الكبيرة بهـا فهبت قاعدة . يقظة العينين كحدأة :

– أمى ··!

– صحوت ياحبيبتى ··؟·· اوع يصحو أخواتك ·· لا احب عياطهم ورائى ·· سآخذ الصغير ·· أحمله نائما كما هو ··!

– أحمله عنك يا أمى لغاية المحطة ··؟!

– لا ياحبيبتى ·· ابقـى جنب اخـــواتك ·· وارعهم ··!

★★★

كانت النجوم لاتزال لامعة فى السماء ، لكن على الواحـد أن ينتظر الذى لاينتظره · القطار يمـرق فى البكور ولايعود مرة آخرى الا بعـد آن ينصرم النهار · جلست على الرصيف والولد فى حجـرها تغطيه بفضـل

اورها · كبير على أن يحمل ، رجلاه تتدليان على الأرض، لكنه نائم الآن · يفتح عينيه وينظر حواليه فلايستطيع اهم مايجرى ، يعود يغمض عينيه مرة آخرى ويروح فى النوم على حجر أمه · البرد ينفذ الى جسمها لاذعا من رمل الرصيف ·

بدأت تدب على السكة بهائم قف شعر اجسادها من البرد . وناس دثروا آذانهم بالملافح · كان زمانها الآن سارحة ببقرتها ، لكنها اليـوم مسافرة · بدأ الناس يتقاطرون على الرصيف ، يسـلمون ويقفون متباعدين وبردانين ·

خرج ناظر المحطة من الكشك مرتديا معطفا أسود مائلا · هبت حاملة ابنها على كتفها :

– اقطع لى ورقة والنبى يا أخى ··!

– فى الوقت متسع ياخالة ··!

– وحياة النبى يا أخى ·· الله ينصفك ··!

– قلت لك فى الوقت متسع ··!

سكتت ، لكنهـا ظلت تسلط عليـه عينين قلقتين متوسلتين ·

دخل الناظر الكشك وفتح الكوة • فكت هى وثاق منديلها من تحت لفائف الثياب وأخذت منه بضعة قروش وضعتها على عتبة الكوة الرخامية الباردة • مد الناظر يده أخذ القروش عدها وألقاها فى علبته المعدنية وأعطاها تذكرة القطار • فلتحافظ عليها الآن مثلما تحافظ على النقود وأكثر • وضعتها فى المنديل وصرت عليها وأعادت المنديل الى مكانه الأمين •

مرة أخرى عادت لتتربع على الرصيف • الترعة تنساب بين الشطين الأسمرين • السكة تصحو قليلا قليلا بالسارحين فى البكور • الندى يتساقط من أوراق التوت الشاحبة فيبلل دائرة حول جذع الشجرة • وبعد لم يأت القطار •

صحا الولد • دهش قليلا ، لكنه صاح من الفرح لما عرف أنه مسافر • ظل يتقافز حول أمه كالقرد • الشمس الذهبية الهشة كزغب الديوك بدأت تفرش أرض الرصيف وتلمع على حبات الرمل الصغيرة الناعمة • بدأ المسافرون يتبادلون حديثا مترددا ضاحكا • وبعد لم يأت القطار •

★ ★ ★

وأخيرا جاء الوحش الأسود مندفعا هائجا على القضبان • الأرض ترتج كأنه يوم القيامة • الناس يجرون ويتزاحمون • تجرى هى تدفع ابنها أمامها والسلة فى يدها • عربة القطار دافئة ومليئة بالضجيج ودخان سجائر اللف وزحام الناس • اليوم سوق وكلهم ذاهبون رجالا ونساء • قفف وسلال وطسوت نحاس مليئة بالجبن والزبد • جلست هى وحيدة خائفة فى هذا المولد • تضم ابنها وسلتها وتتلفت حولها متوجسة •

من بعيد جاء الكمسارى يجتاح العربة • يصرخ ويشتم ويلكم ويرفس ويأخذ الناس من أطواق الثياب • ماتت فى جلدها قبل أن يصلها • تحسست كيان المنديل الناتىء • قبضت عليه وشددت قبضتها •

صرخ الكمسارى فيها وهو يضرب مسند المقعد بمقراضه :

ـ تذكرة !

ارتعشت يدها • عجزت تماما كخرقة بالية • الكمسارى يصرخ ويضرب مسند المقعد بمقراضه ، وهى لاتستطيع بحال أن تصل الى المنديل تحت طيات الثياب •

ـ والله لتدفعين الغرامة يابنت الكلاب ٠٠ هاتى عشرة قروش ٠٠!!

انهمرت دموعها ونشجت بعنف :

ـ والنبى ياأخى ٠٠ ان كنت مؤمنا صدقنى ٠٠ أنا قطعت تذكرة ٠٠ وهى معى ٠٠ كف شرك عنى ٠٠ سأجدها حالا فى ثيابى ٠٠!

ـ أنا يهودى وكافر وابن كلب ٠٠ ولن أتحول عن تغريمك عشرة قروش ٠٠!

انفتح الولد فى صراخ مذعور ٠ تدخل أولاد الحلال ٠ صياح وكلام وحلف بأيمان غلاظ ٠ يصرخ الكمسارى ككلب مسعور ٠ يجرى القطار فى ضجة مهولة ٠ فقدت هى وعيها بنفسها كلية ٠ تبكى دونما ادراك ٠

أخيرا استطاعت أن تستخرج صرة المنديل وأن تفك عقدته وأن تجد تذكرة القطار راقدة بجوار النقود ٠ اختطف الكمسارى التذكرة ومزقها وألقى بها بعيدا وهو يصرخ :

ـ حتى تتعلمى أن تبرزى تذكرتك لمراقب القطار ٠٠!

ثم أخذ من منديلها عشرة قروش نحاسية ٠ أعطاها قسيمة بيضاء أمسكتها فى يدها لم تفلتها ٠

★ ★ ★

مع الجموع نزلت وحيث يسيرون سارت ٠ وعند أول شارع السكة الجديدة بانت قبة السيد البدوى ٠

ـ يادليل الغريب ياسيدى ياسيد !

يأتى الناس لهذا المقام من جميع البلاد ٠

ـ يازين ماقصدوا لما قصدوك يابو فراج ٠٠ هاهو السيد ياولد ٠٠!

ـ ده ٠٠ الكبير العالى ٠٠؟

ـ نعم ٠٠

ـ طيب ٠٠ نزوره ياأمى ٠٠!

ـ هو سكتنا ٠٠ ليس لنا غيره سكة ٠٠!

صارت جزءا من الزحام المتحرك ببطء نحو المقام ٠ الباب الأسمر الثقيل مفتوح على آخره رأت السيد البدوى ٠ كيان ضخم من النحاس الأصفر ٠ نجف باهر ٠ ريح عاطرة تملأ المكان ٠ هتفت بأشواقها ٠ أشواق قديمة لم ترو أبدا :

– جيتك حافية ورأسي عريانه ··· مالي غيرك ياسيد ··!

طفرت دموعها · زغردت عاشقة أخرى فشجت الزغرودة قلبها · ضحكت والدموع مالحة في فمها · الكتلة البشرية تعصرها ، تدخل بها المقام وتدور بها حول الضريح · أكتاف الناس وسواعدهم تدفعها وتلكزها في جسمها وهي تسير · حتى أحست بواحدة من الأيدي مدربة عارفة حاسمة ، تتحسس بسرعة ردفيها ، ثم تنزلق الى بطنها ، ثم تمسك بقوة مابين وركيها · أحست بقهر لا حد له · تتلوى من الوجع · تجهد بكل مافيها من حول حتى قفلت · أمسكت بشبك النحاس البارد · أسندت رأسها على ذراعها وبكت :

– آه ···

رجل عجوز له عمامة ولحية قال :

– لا حول ولا قوة الا بالله ··!

والناس من ورائها دفعوها :

– اسعي ياحاجة بالصلاة على رسول الله ·· على من زار أن يخفف ·· ويدع غيره يزور ··!

سارت مع الزحام خارجة الى صحن الجامع ·

★ ★ ★

الولد يبرطع فرحا على البلاط النظيف اللامع في صحن مسجد السلطان وهي جالسة على الحصير مكتئبة · لايزال الألم في جسمها والقهر في قلبها · شردت قليلا ثم قالت مكلمة نفسها بصوت عال :

– الدنيا حلوه ·· لكن أولاد الحرام كتير ··!

نادت على الولد أعطته لقمة · هي لم تفطر · نظرت للزاد ثم نحت السلة زاهدة وقامت لترى ·

لمة من الناس حول شيخ يفترش فراء خروف وأمامه موقد وعدد وأدوات وأحقاف وأشياء أخرى كثيرة · جلست هي وابنها وسلتها على الحصير · الشيخ أبيض الوجه وعلى رأسه عمامة خضراء · عيناه عسليتان لاتتحولان عن يديه المشغولتين ·

من بين الخلق المتجمعين حوله والدان يعريان ظهر ابنتهما الصبية ويرقبان الشيخ واجفين · على نار الموقد الطنان قطعة من قشر جوز الهند · تلقفها بأصابعه وقلبها بسرعة ، ثم وضعها على الظهر الأبيض العاري

حتى انبعث الدخان من مطرحها ورائحة اللحم المحترق· صــارت مكانها بقعــة بنية على الجسم المرتعش بالألم والنحيب · صخب الناس بالدعاء مهللين ·

ـ بالشفا ·· بالشفا ··!

ورجل أكثر حكمة ومعرفة قال :

ـ عندها عرق النسا ··!

والوالدان . الرجل فك عقدة منديله ليؤجر الشيخ والأم ضمت ابنتها الباكية الى صدرها · وهى مالت على جارها تعرض عليه يد ابنها · فى ظهرها عنــد المفصل عقدة بارزة ·

ـ ترى ·· يعرف لهذه علاجا ··؟

ـ عنده لكل علة دواء يابنتى ·· يد مباركة ··!

ـ وأجره بليغ ··!

ـ أجره على الله ·· ومايجود به أهل المريض ··!

نظرت للشيخ مرة أخرى · عيناه عسليتان · يداه صغيرتان مثل طفل · أصابعه رشيقة لاتكل ·

زحفت على الحصير مقتربة · مدت يدها تعرض يد ابنها · فحصها الشيخ متأملا ثم تركها · آخذ ابرة غمسها فى سائل أسود فى زجاجة صغيرة · قال لهــا رجل من الجالسين :

ـ امسكى يد ابنك ياحاجة ··!

أمسكت ابنها · الشيخ يغمس الابرة فى الســائل الأسود ويشك الولد فى النتوء البــارز شكات سريعــة جدا · يصرخ الولد وهى مآخــوذة القلب لكنها فرحانة لأنه سيبرأ ·

★ ★ ★

خرجت من رطوبة الجامع الى حر الشارع · عشيت عيناها من الضوء · على جانبى الشارع دكاكين وعربات محملة بكل ألوان البضائع · يصرخ البائعون وينادون وعلى وجوههم الشر · تمشى هى فى وسط الشارع تماما تتلفت خائفة يمينا وشمالا · بائع جوال ينادى ويعرض بضاعته للناس · مناديل رأس حمراء وخضراء وصفراء محلاة بالبرق والترتر :

ـ حرير طبيعى على كل لون ٠٠ أصل الثمن سبعة قروش ٠٠ مكسبى على الله ٠٠!

طار لبها وراء المناديل ٠ ياأحلى ماتكون على رأس ابنتها ٠ أعطت الرجل سبعة قروش وأخذت واحدا وقفت تتأمله وجدت فيه ثقبا ٠ جرت لحقت بالرجل :

ـ المنديل به ثقب ياأخى ٠٠!

ـ امشى من قدامى ياامرأة مجنونة ٠٠!

وتركها ومشى ينادى على المناديل :

ـ أبيع بأصل الثمن ومكسبى على الله ٠٠!

بقيت هى مبهوتة تتأمل المنديل المثقوب ، وابنهـا خائف متشبث بجلبابها ٠ رأى كربتها من على البعد رجل كبير يجلس على كرسى وأمامه عربة محملة بأصابع الحلوى البيضاء والمحزمة بالأحمر فقال لها مواسيا :

ـ عوضك على الله يابنتى ٠٠!

ـ الله لايكسبه ولا يبارك له ٠٠!

ـ كلهم سارقون ولاد كلب ٠٠!

الحلوى مكدسة على العربة والولد ينظر وأصبعه فى فمه ٠ قالت للرجل وهى مترددة خائفة :

ـ اوزن لى بخمسة قروش ياعمى ٠٠!

والرجل فهم خوفها وضحك منه ٠ فرش ورقة فى الكفة ووزن لها وزنة طيبة :

ـ افردى منديلك ٠٠!

فرحت بالحلوى الكثيرة ٠ أخذتها فى سلتها وأعطته القروش الخمسة وهو أعطى الولد قطعة كبيرة ملونة ٠

★ ★ ★

على الرصيف فى الظل جلست ٠ مـدت يدها فى السلة أخرجت لقمة ٠ تمضغ اللقمة دون أن تسيغها رغم أنها جائعة لم تفطر ٠ الولد يلعب حولها يلعق الحلوى ويقضم منها ٠

تتأمل المدينة شاردة ٠ مدينة مزدحمـة بالبـائعين والمشترين ٠ مدينـة صـاخبة بالمسـاومات والصـياح والشتائم وزفرات المخـدوعين ٠ تفكرت قليلا ومـلأها القهر ٠ مدينة قبيحة ٠ رغبت بشدة فى أن تعـود الى الدار ٠ نظرت الى قبة السيد البدوى وهمست فى حنان وألم ٠

ـ لولاك ماجينا يابو فراج ٠٠!

القطار الآيب موعده اصفرار الشمس ٠

كان مزدحما بالراجعين ٠ الناس متعبون جهمون ٠ خبطات مقراض الكمسارى على مساند المقاعد متباعدة رتيبة حازمة ٠ مدت له يدا مرتعشة بالتذكرة ٠ قرضها وأعطاها لها ٠ كم هى متعبة ومكروبة ٠

حينما نزلت على رصيف محطتهم كانت الشمس قد غابت ٠ احمرار خفيف يلون شواشى الشجر ٠ تلتوى شفتا الولد من لذعات البرد المبكرة ، أخذته فى حضنها ٠ حملت سلتها وسارت يسبقها قلبها الى الدار ٠

برفق دفعت الباب داخلة ٠ رأت العيال متحلقين حول أختهم الكبيرة على الحصير ، والبنت وسطهم كدجاجة أم يقظة حازمة ٠ حينما رأى العيال أمهم هاجوا وزاطوا وهجموا عليها يعانقونها ، وعلى السلة يفرغون محتوياتها ٠ امتلأت الأيدى بالحلوى وفرحت البنت الكبيرة بالمنديل لم تأبه للثقب الذى يعيبه ٠

أسندت هى ظهرها للحائط ومددت رجليها على الحصير ٠ تعبة وقانطة ٠٠ لكنها تبتسم لفرحة العيال ٠

فرش له الحصير الأبيض على المصطبة أمام باب الدار ٠ أراح الشيخ جسده ممددا ساقه مخليا عصاه مركونة الى جواره ٠ راح ذلك الزمان أيام كان خفيفا متوثبا كأنه الفرحة الجارفة ، أو الغضب العارم ٠ جسده الآن مثقل بالسنين كزكيبة مليئة بالرمل ، ٠٠٠ لاحول ولا قوة الا بالله ٠

تحدد سيل القهوة السوداء شفيفا رائقا ليملأ الفنجان ٠ أرهف أذنيه ليسمع كزكرة السائل ٠ ثم مد يده ليتناول قهوة العصر ٠

فجأة ضحك لنفسه ٠ ماج الضحك فى داخله حتى

اهتز له • انه يتذكر مايزال تلك اليد الصغيرة وهى تمتد له بفنجان القهوة مرتعشة مضطربة ، والقهوة تسيل من الحواف وتتقاطر على الأرض . ووجه ابنه الطفل ملىء بالحرص مشدود بالانتباه ، حتى يسلم الفنجان الى أبيه فيلتهب بالفرحة ثم يجرى ليلبد فى جواره يحتضنه بأذرعه الطرية الصغيرة •

الفرحة القريرة تحولت الى رضى عميق يشمله ، لايزال يذكر الجسد الصغير الطرى المملوء لهفة وحنانا يحتضنه ملتصقا بجنبه ، ولده أيام كان طفلا • لكن أيام الزمان المريرة أضاعت الحول وأثقلت القلب ، يوما بعد يوم . لولا أن لكل يوم عصرا ، وقهوة العصر ، وملاعبة الولد فى ساعة تنفرد بنفسها عن تعب النهار وتشق مجرى رقراقا فى صميم العمر •

رشف القهوة من الفنجان • انداح الطعم فى احساسه كله ، طعم تخالط فيه الحلاوة المرارة فى مزاج عبقرى • يحملق ، عيناه معلقتان بأعلى الدرب ، كليلتان وهو بهما يحيا فى غسق دائم •

لكن فى الساعة المعلومة ، مع الآيبين فى العصر سوف يعود الابن • سوف يعرفه على البعد ، كتفاه عريضتان، يمشى مندفعا الى الأمام • هكذا كان الجد يمشى ، وهكذا مشى هو فى زمانه • خطوات ثقال يدقون بها وجه الأرض ابنا بعد ابن •

ركن الفنجان الى جواره ونبش الأرض بعصاه • ذلك القلق ، تلك الساعة الاليمة التى يحياها كل عصر، لكن الابن سيأتى حالا • سوف يبدو بأعلى الدرب بعد لحظة مقبلا يندفع حاملا كتبه تحت ابطه ، يقبل يده ويجلس الى جواره يحكى له عن كل شىء • اليوم خاصة ماكان له أن يتأخر ، بل أن يبكر بالعودة • ثمة خيوط دقيقة من القلق تسرح فى الجسد تؤرق الصفاء • شىء ما فى وجوه الناس وفى هيآتهم ، شىء يعلق بالهواء كالرائحة القوية أو النبأ الفاجع • لكنه ثقيل السمع والكلمات تأتيه من البعد خرساء لاتقول • الناس يجرون مسرعين يلقون السلام ولايأبهون برد السلام •

من دون كل الوجوه البرمة الماضية لاتلوى على شىء كان وجه الابن دائما مليئا بالحنان والفهم وضيئا بالصبر • اليوم من دون كل الأيام تتأخر عودته الى الأب وهو أشد مايكون احتياجا اليه •

وفجأة خطر له خاطر رهيب ملأه رعبا • ان ابنه

هو الآخر يخفى عنه شيئا • وبقوة على التذكر خارقة استحضر كل طرفة فى ملامح ابنه وكل هزة فى نبرات صوته خلال الأيام الأخيرة • ساوره الشك العظيم • ابنه ، نافذته الوحيدة على الدنيا يخفى عنه تدبيرا • لقد ألقى الشيخ اذن فى زنزانة مصمتة وأغلق عليه بلا رحمة •

استدار بعينين دامعتين يحدق فى أعلى الدرب • الجهات كلها ضنينة بالأمل مكبوسة بالصمت والعماء • من يسأل الآن اذن ؟ فى انتظار من يبقى قاعدا ؟ ماكان للابن أن يضلع فى مؤامرة الصموتين المنصرفين عن الشيخ فى عجلة ولا مبالاة وضجر • يواصل التحديق حتى يرى ولده مقبلا • قلب الشيخ يصطخب على وقع خطوة الابن الثقيلة • شوق الرجل متعلق بابتسامة الابن العريضة • لن يسمح له بعد الآن أن يخفى عنه شيئا • عليه أن يقول كل شىء •• والآن •• ان الأب فرح وعاتب وخائف •

جلس الابن الى جوار أبيه • كم كبر حتى ماعاد يرى فيه طفله القديم • اخشوشن الصوت يأتى من أعماق حزينة • ومن الوجه اختفت الاستدارات الناعمة

الطفلية ونتأت الملامح كأنها قدت من حجر طاحون ، واليدان قابضتان على صف الكتب على الركبتين • تلك أيدى الرجال الذين تمرسوا بالفأس وآنواء الغيط رجلا بعد رجل بعد رجل • مبارك أيها الابن الصالح • ربما فيه شىء من عطر طفولته البعيدة • يحكى والأب يسمع الكلمات بقلبه ويدركها بأساه •

فانه فى كل الأزمان كان الرجال وكانت الدار والبهيمة والحقل وراحة القلب • وكان جهد الفكر سر النماء والذبول والولادة والموت • وكانت رياضة الروح رحلة الصباح والمساء الى المسجد الجامع ، واسلام الشوق الى الآسى الدامع فى التراتيل • تنكسر الأشواق قبل أن تهيم • مسدودة الآفاق بالمخاوف ، محروسة بالرعب المانع جيلا بعد جيل • رجلا بعد رجل بعد رجل •

لكن ، كيف ولدت الجراءة فى عين الولد ، والقدرة على التحديق دون خوف فى الآفاق • آكان الشوق دائما هناك • أوعته القلوب وأسلمته قلبا بعد قلب بعد قلب •

ـ نعم ياأبى ••• على أن أرحل •••

الآن بعد أنكل البصر وضعفالسمع يدرك الشيخ.
كان على ذلك أن يحدث منذ أمد طويل ، أن نخرج وأن نسأل • ربما كنا قد وفرنا على القلوب كثيرا من الحزن • ربما كنا قهرنا الحزن بمعرفة أصل الحزن •

قام العجوز واقفا مستندا على عصاه • قام الابن الى جواره ممسكا كتبه • التفت اليها العجوز • رفعها الابن اليه حتى لمسها برفق •

دخل الابن الى الدار ليسلم على أهلها قبل أن يرحل • حدق العجوز فى الأفق عند أعلى الدرب • هاهنا سيترقبه كل يوم • ترى هل يرجع : الله يعلم • لكن عليه أن يرحل •

غسق

الولد كبر ، ومن حق الولد على أبيه اذا كبر أن يؤاخيه ويخفض له الجناح • الأب فى الحق طيب وديع لين الطبع • لكنك لم تره زمان • كان وحشا كاسرا • كان يسير صدرا منتفخا ووجها جهما مشرعا وعينين مغمضتين كأنما تزدريان أن تريا شيئا من هذه الدنيا •

كان ديكا شامخا أو جملا مولدا هصورا • يملك زوجتين رهينتى الدار • حينما تريانه فكأنما سخنت الأرض تحت أقدامهما فلا تستقران فىمكان • صيحاته تطاردهما ، تدفعهما تلقى بهما الى كل ركن • والدار

مليئة بالعيال والأجراء والبهائم والدجاج . وهو السيد من فوق كل هذا ، السـيد الرهيب المزدحم الجـوانب بالهياج .

لكنه صار طيبا . كيف كان هذا ؟ ربما بدأ الأمر بداية صغيرة . ربمـا كان أن خطأ صـغيرا وقع تحت بصره . اذ ذاك ارتعدت كل الفرائص ، انقطعت كل الأنفاس ، توقفت كل القـلوب عن الخفقـان ، سكنت عناصر الدار فى انتظار وقع الصاعقة ، فى انتظار أن ينقض الشيخ على المخطىء بالعقاب .

والسيد التهبت عيناه البنيتان بالغضب . انتفخ صدره ثورانا والوجوه جامدة حائلة اللون كأنها أقنعة معلقة على الجدران . ثم لم يحدث شىء . لم يدو الانفجار المروع . لم يوقع بالمخطىء العقاب . والسيد استدار خارجا .

ربما كانت هكذا البداية . من يدرى . من لايزال يذكر . لأحد يرى الهباءة الاولى اذا تنزل رأسية على السطح اللامع . انما يفطن المرء الى ذلك حينما ينكسر بهاء صقاله ويغزوه الغبش .

هكذا كان التسامح الأول . ربما . لكن ثمة شيئا انزرع فى كل صدر وبدأ يكبر ، هو شك . هو أمل . يأمل المخطىء أن السيد هذه المرة لن يلاحظ ، ويرجو ألا يثور ، وقد يرجح أنه لن يغضب ، ويرى من الخير أن يتسامح .. لماذا ؟ ان على السيد فى نهاية الأمر أن يملك غضـبه . هـكذا كانت الهواجس المكتومة فى القـلوب توشـك أن تخـرج . فكل قلب به من الهم مايكفيه .

وهـكذا أصبحت للأيام عصـارى . وأصبحت العصارى طيبة رضية . يعلمون أن الأب جالس على المصطبة أمام باب الدار ، لكنهم يمددون السيقان من تعب اليوم . ويسندون الظهور الى الحيطان .

ويدخل طفل حاجلا الى وسط الدار لاعبا بشقفة يدفعها بقدمه :

ـ اعملوا قهوة ..!

يكرر الكلمـات ويبسطها . يفـردها ويطويها تتنهد الأم . جسمها زاخر بالتعب وأجفانها متهدلة ورأسها مسنود على راحتها :

ـ قهوة لأبيك يابنتى .. اعملى معروف ..!!

غمغمت البنت وتبرمت • تلكأت الأم طويلا بين وسط الدار والكانون ، حتى خرج الطفل حذرا ينقل أقدامه واحدة واحدة • رغم الحذر تهتز الكنكة وتراق القهوة حتى تصل الى يد الاب وقد فقدت ختمها المعقود على فوهتها •

والولد جلس ــ مترددا ــ على طرف حصير أبيه الأبيض المفروش على المصطبة • نظر الى أبيه بنصف عين • ثم أراح نفسه قليلا زاحفا على مساحة أكبر من الحصير • ثم ــ تصور ــ ابتسم ، بل لقد حدث أنه ضحك • لو أن الآب زعق فيه لوقف قلبه • لكن الرجل سأله رفيقا :

ــ فيم تضحك ؟

ــ مدحنى المدرس اليوم أمام كل العيال ••

والأب رنا اليه هادئا ودعا له • والولد فرح وكان يقفز الى حجر أبيه لولا ان بقية من صولته القديمة مازالت تملأ القلب بالخوف •

لكنه كبر • اخشوشن صوته وتحملت شفته العليا بزغب ذهبى • جلس على حصير أبيه مطمئنا يسند ظهره للحائط ، ويمدد ساقيه على آخرهما :

ــ ماآخوفنى من امتحان هذا العام •• وتلك شهادة عامة ••!

وقال الأب متضرعا :

ــ الله معك يابنى ••!

يملأ الولد جلسة العصر بالجهامة • عيناه مركوزتان على بقعة قصية آمامه • الأب يخالس جهامة ابنه نظرات قلقة متوجسة • فجآة يلتفت الولد جميعا، ويبتسم الأب مداهنا حائرا صغيرا • يجيب الولد على ابتسامة أبيه بابتسامة فيها اعزاز وحنان • يتناول يده • يربت على نعومتها • يتحسس العروق سارحة فى ظهرها متكسرة طرية •

تسرح نظرات الأب بعيدا • توغلان فى المكان • توغلان فى الزمان • فى الأيام الغابرة • وينشق الشارع عن عطار جوال • يحمل حقيبة ذات غطاء زجاجى يشف عن صفوف وصفوف من الزجاجات الصغيرة والأحقاق الدقيقة • الزيوت والمراهم والمساحيق • الأسرار الغامضة المحتواة فى الأوانى المغلفة بالورق الشفيف الأخضر • وعلى مقبض الحقيبة تلتف أصابع الرجل بنية لامعة من تداول العقاقير •

السبابة ينفرد حافظا الغطاء من الانفلات • كأنما يشير مؤكدا على محتوى الحقيبة •

عيون الأب تتحسس الزجاجات الصغيرة والأحقاق الدقيقة • فرح قديم • خوف قديم • رياح يضطرب لها القلب القديم • العطار معطف سابغ على قوام مرهف نحيل ، وجه معروق ، مشية واهنة فى ظلال الحيطان كأنه وهم أو سر :

ـ السلام عليكم

ويشرق وجه الأب :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله ••• القهوة ياحضرة ••!

ـ الله يشرح صدرك !

ـ وحياة الحسين !؟

ـ عزيز علينا الحسين ••!

فالعطار من هناك جاء • يابن بنت الرسول • لايزال ثمة مستراح للأمل فى الجنبات الفواحة بالعبير • هيام صوفى يكاد يدفع الدموع الى عيون الأب • والعطار يميل ، يهمهم وهو يلم ثوبه جالسا :

ـ لنا نصيب •• لاحول ولا قوة الا بالله ••!

سرى الخبر فى الدار • وخرجت القهوة للضيف • لم يتأرق همود العصرية ، وساقا الأم بقيتا ممددتين على حصيرها •

ارتفع الغطاء الزجاجى عن صفوف الزجاجات والأحقاق • فاح الأريج وانشرح الصدر وانثالت الخواطر الفرحة • غمس العطار عود كبريت خشبى أبيض فى حق عنبر • أذاب غمسة سمراء لامعة فى فنجان الأب :

ـ باسم الله ياحج ••!

أمال الحج رأسه يمنة ويسرة مفعما طيبة وفرحة • وفرحة •

ـ ياسيدى ياحسين مدد ••!

ابهام رجله تململ فى المركوب • سرت فى جسده المترهل تموجات من الابتسام • تموجات الدسم العائم ترتسم على سطح القهوة فى الفنجان • طعم وأريج ورسومات غامضة تأسر المخيلة ، يقول الأب متوسلا :

— هل تكرمنا بأن تأكل من زادنا ياحضرة ··؟
لاتتكلف · ضيفنا كما أمر رسول الله ··!

ـ الحمد لله ··!

— وحياة الحسين ··!؟

— لاحول ولاقوة الا بالله ··!

دخلا الى وسط الدار · وضعت الصينية الصغيرة من النحاس الأصفر بينهما على المصطبة · لاأحد يفهم شيئا · الوجــوه عــلامات استفهام متناثرة فى أقاصى الأركان · والسر يدور على نفسه ، يجمع أطــرافه ، يتكور . ينكمش فى همس مخبوء بين الأب والعطار · والعطار وجه حالم رفاف هضيم ، أصابعه طويلة نحيلة مبصرة قائلة مؤكدة ، ثم تســتريح على الركبتين فى سلام · والحاج التفت الى أهل الدار صائحا بهم :

— هاتوا الوابور ··!

صوته القديم ! يارب الأشياء جميعها ، لقد عاد صوته القديم وعاد معه الخوف منه · كالفل الذى داهمه الماء يهرع النســاء والعيــال والمعيز فى كل اتجــاه ، يتعثرون فى البطات والدجاجات وتطــير من الفــزع

الحمامات · كلما تقابل وجهان ـ فى التدافع المختلط ـ تلامست قرون الاستشعار · ماهذا ؟ لاأحد يفهم شيئا، والصوت لايزال يجلجل :

— هاتوا ملء كوز سمنا !

— هاتوا ملء كوز عسلا !

— هاتوا ثوما !

— هاتوا حلبة حصى حرة محمصة !

— هاتوا ·· هاتوا ·· هاتوا ··!

كشفت جميع الأوانى · فتحت الصناديق · حلت عقد الصرر · انتابت الحمى القديمة جسد الدار بعد أن كان قد نسيها واستكان الى الترهل والهمود ·

ثم فجأة يسمع وقع أقدام الابن الداخل من الباب· كبر · لم يعد زغبا ذلك الذى تحمله الشــفة العليا ، انما خط أسمر ثقيل لايهمس بل يقول آمرا متعاليا · رمق المشهد على المصطبة فى لمحة ، وفى لمحة أدرك الحمى التى تنتاب جسد الدار · هــل أعاده ذلك الى طفولته الحبيبة؟ يحس نفسه طفلا وهو يزحف متصاغرا ويجلس منكمشا على طرف الحصير يراقب فى حــذر ذلك السر المخبوء بين أبيه والعطار ·

لكن الأب انكسر ازدهاؤه وزاحم بـريق عينيه الغبش • يتضاءل • تطـرف عيناه ناحيـة الابن فى خوف • ينكس الابن رأسـه غاضا بصره • تهمى فى داخله دموع دافئة • لماذا ياأبى الحبيب • لماذا يقدر على أن أكبر • لماذا يحدث أحيانا أن يكون الابن أكثر طولا من أبيه ، وأن يطرده ظله • أنا لاأريد ياأبى • أنا لا أريد •

العطـار يتأمل القـدر على الوابور • الأب ينقر بسـبابته على ركبتـه فى قلق • اكتشفوا أن العطار يحمل فى يده سلة كان يجب على كل حال أن تملأ بالخبز والفطير • وأنه فى يده السمراء الممدودة ينبغى أن تدس ورقة عملة • قال الرجل وهو ينهض واقفا :

ــ يبقى القدر على نار هادئة مقدار عشر دقائق• ثم ينزل ويترك ليبرد • ومن المطبوخ تتعـاطى ثلاث مـلاعق عـلى الريق كل يوم •• يحصـل المراد باذن الله ••!

ثم تسلل خارجا • ترك وراءه بقعة من الصمت على أرض وسط الدار • ابتسم الأب ابتسامة باهتة • نظر الى القـدر فى ارتباك • أراد أن ينزله من على الوابور فلسعه النحاس الساخن • امتص أصبعه خجلا• قام الابن متمهلا الى الوابور • آنزل القـدر • أسرع يدير وجهه بعيدا • شىء ما فى عينى الأب دفع الدموع الى عينى الابن • جاءت الأم أطفأت الوابور • نظرت الى الأب متسائلة فى عتاب خافت حزين :

ــ ما الذى يدور فى رأسك ؟

لم يحـر الرجل جـوابا • ينظر الى زوجته وعلى فمـه ابتسـامة طفـل مرعـوب • قالت له امـرأته مواسية :

ــ لقد كبرنا •• ماعادت تجـدينا حكمة الحكماء •• وليس لنا الا أن نرضى ••!

هـل ضمرت قـدم الأب فأصبح المركوب واسـعا عليه ••؟ يمشى يخب فيه الى مجلسه أمام باب الدار • خطوط ظهره محدودبة •

الصفارة

صف طويل جدا من الصبية يتسللون بين أعواد الذرة أفرادا أو أزواجا متباعدين يضعون تحت العيدان حفنات صغيرة من السماد الكيماوى . يعرفون أن وراءهم خوليا يسمعون صفارته ويخافون خيزرانته لكنهم لايرونه .

الولد حسن والبنت هانم فى طرف الصف . فى يد كل منهما اناء ملىء بالسماد . الأيدى النحيلة السمراء دائرة كبناديل الساعات بين الأوانى وجذور الأعواد .

الجو ثقيل قليل الضوء . خيوط العنكبوت المعلقة بين العيدان تلصق بالجبهة والأصداغ . أوراق العيدان

تشرخ الرقبة والخدود كسكاكين لينة · العـرق ينبت مقرحا فى الظهر وتحت الابطين ·

الولد حسن متوتر يضرب الأرض بقدميه ويرفس سـيقان النباتات الطفيلية التى تشتبك بذيل جلبابه وجـذور العيـدان القديمـة التى تنغرس فى باطن قدمه ·

حسن يلحظ هانم كل حين · تجفل قليلا وتبادله نظرة حذرة · يميل عليها فتنزاح جانبا رويدا رويدا· بعدا كثيرا عن باقى العيال ·

أسرعت أنفاس حسن وكثرت لفتاته نحو هانم · وهى ازدادت جفلاتها منه عمقا · الحفنات الصغيرة من السماد أصبحت لاتصيب جذور العيدان تماما ·

ازداد الجو ثقلا وعتمة · تحدرت قنوات من العرق على جسد حسن تحت جلبابه · سرى من كفه الى ساعده ذوب الملح الكيماوى · لم يستطع بيديه الملوثتين أن يحك جلده الذى التهب كله نارا · زفر · مال برأسه وحك بقمة كتفه قطرة عرق تسير على مهل خلف أذنه· رمق هانم طويلا · أنفاسه تحدث صوتا وهى خارجة

من أنفه · البنت نكست وجهها وأغفت · حفنة السماد سقطت بعيدا جدا عن جذر العود · هتف بها حسن :

ـ هانم

أقعت على مؤخرتها حالما سمعت فحيحه الصارم · زرعت كفيها فى الأرض خلفها · ارتمى اناء السماد مائلا بجوارها · تدلى فكها الأسفل مفرجا شـفتيها · خصـلة شـعر مبلول مغبر التصقت بجبينها · انحسر ثوبها عن سروالها الأحمر ووركيها الضامرين · ارتكز حسن على ركبتيه وكفيـه وبدأ يزحف نحـو هانم · ثدياها الصغيران يرتفعان وينخفضان فوق صدرها ·

فجأة سمعا صفارة الخولى · أمسكا الأوانى بسرعة وعادا لوضع الحفنات الصغيرة تحت جـذور الأعواد · ضاق صدر حسن · نزع بعنف ورقة عـود ذرة كادت تنفذ بين جفنيه وتشج حبة عينه ·

سبق هانم قليلا · أطرق هنيهة يتصنت · لايسمع لباقى العيال صوتا · أكب على تسميد العيدان · ثمة كثير منها · الله يعلم متى يصلون الى الترعة ليغسل عن يـديه ذوب الملح الكيمـــاوى الذى يسرى فى يـديه كالنار ·

وقفت جرادة نطاطة على قفـاه · أنشبت سـاقها المنشارى فى جلده · وضع الاناء على الأرض · ضـم كتفيه الى رقبته · دارت رأسه بجنون يمينا وشمالا · أصر على أسنانه لم يستطع أن يقـرب يده الملوثة من رقبته ليقبض على الجرادة والا التهب جلده نارا · طارت الجرادة من نفسها ووقفت على عود بعيد ، ثم الى غيره وغيره وحسن ينظر اليها مغيظا ·

لاصوت يسمع سـوى حـركة يديهما الرتيبة بين الاناءين وجذور العيدان · جمد الولد حسن فى مكانه وجمدت هانم بدورها كأنهـا جزء منـه · انحنى الى الأمام مادا أذنيه لتسمع · لا نأمة سوى حركة الجنادب· كانا بعيدين جدا عن باقى العيال ، وحيدين تماما ·

استدار حسـن متلصصا · يـده اليمنى الملوثة بالسماد دارت مثل رأس ثعبان باحثة عن يد هانم ·

جمدت يسراه معلقة فى الهواء قابضـة على وعاء السماد الكيماوى ·

كبش حسن كف البنت هـانم بعنف وهـو يدور بعينيه مفتشا بين العيـدان مرسـلا من بين شـفتيه

«هسة» طويلة متقطعة جاذبا معه هانم وهو يهبط تانيا ساقيه حتى تقرفصا على الأرض وركبتاهما متلاصقتان وتكاد جبهتاهما أن تتماسا · أراد أن يدس يـده فى طوق ثوبها مفتشا عن ثديها ، لكنها ملوثة بذلك الملح الكيماوى · بدأ يحكها فى الأرض بسرعة وعنف ليمسح عنها السماد ·

فجأة سمعا صفارة الخولى · انتصب حسن واقفا · ولابد أن شظية زجاج كانت قد شجت أصبعه ، فقد كان يقطر دما ·

انتظمت اليدان فى ترددهما بين الاناءين وجذور العيدان · تسرب ذوب الملح الى جرح الأصبع فالتهب نارا · توترت يد حسن القابضة على الاناء · يقبض يده المجـروحة ويفـردها بعنف · رمقته هانم قلقة وعيناها معلقتان على ظهره · قطر أصـبعه دما دمعت عيناه · التفت لهـانم ، بادلته نظـرة كسيرة · لكنهما معا استمرا يكبشان السماد تحت جذور الأعواد ·

بعد قليل شع نور بين أعـواد الذرة المتكاثفة · انفسحت الأرض وترقشت ببقع من ضـوء الشمس · انتصب حسن واقفا · جرى نحو الترعة ليلقى بنفسه فى مائها ·

الخــوف

كنت مخمورا أحاول جهدى أن أستجمع وعيى ٠ سـائق التاكسى رصين الكتفين ، والعـربة تمرق على الأسفلت المبلول المضاء بمصابيح الطريق ٠

يبدو أننى مريض بالكبد ٠ كمية الخمر الرخيصة فى معدتى تثقل على وعيى مثـل كلكل الجمل ، لكننى يقظ وعارف ، ومن طرف خفى أرقب تتابع الأرقام فى عداد التاكسى ٠

هذا السائق كتفاه تتسـاوقان فى حـركة رتيبة أكيدة ٠ بعد لحظات سأقول له :

ـ هنا ٠٠!

عندئذ يقف وأعطيه حسابه · سآمره بالوقوف فى صوت خفيض ، لكنه قوى وآمر ، حتى لايلحظ أننى سكران ·

عيناى على عداد السرعة · تسعون كيلومترا فى الساعة · ياربى · العربة تستلبنى بهذا المروق الخارق على الأسفلت الناعم · أطرافى باردة بخوف مبهم :

ـ هنا ٠٠٠ على اليمين ٠٠!

بليونة وقفت العـربة · تفتحت عين خضراء فى لوحة العدادات · ضغطة هينة على مَقبض الباب انفتح· المعدن صقيل بارد · العربة جديدة متحفزة ·

بعينين ساجيتين متعاليتين ألقيت نظرة على العداد· أنا أعرف مافيه سلفا ، لكننى حـريص على أن أبدو طبيعيا · بأناة خلعت قفازى ودسست يدى فى جيب معطفى وأخرجت ورقة ذات خمس وعشرين قرشا · عليه أن يرد لى ثلاثة قروش ·

بنفس النظـرات السـاجية المتعالية تأملت كفه القابضة على ورقة النقود ووجهـه الذى تنعكس عليه

أضواء لوحة العدادات · سألنى وأسنانه تبرق بيضاء لامعة :

ـ معك قرشين ؟

ـ لا ٠٠!

ثم ترقرق فى قلبى الأسى فأردفت :

ـ آسف ٠٠!

ثم قلت متوسلا :

ـ لايهم ٠٠!

لكنه أزاح رجائى بقبضته القـوية ، ثم جـذب محول السرعة وقفز بالعـربة تاركا فى أذنى أمـرا باترا :

ـ انتظرنى هنا حتى أعود لك بالباقى ٠٠!

تسمرت فى مكانى مرتبكا وخائفا قليلا · تتعلق عيناى بالعربة التى تبتعد مسرعة · وجدتنى وحيدا · فى مواجهتى على الضفة الأخرى من الشارع صف طويل من أبواب الدكاكين عمياء صـامتة واقفـة على حافة امتداد أسفلتى لا متناه مضـاء بمصابيح الطـريق ·

صمت مريب ٠ الوحشة تزحف على من جميع الاتجاهات ٠ وأنا فى بؤرة مخيفة ٠

انطلقت مسرعا الى بيتى ٠

حذائى يضرب حصباء الطريق فى ارتباك ولهفة ٠ أسرع ، أزيد سرعتى ، أفر هاربا ٠ دفعت الباب الحديدى فصر صريرا عاليا ككلب دست على ذيله ٠ صعدت الدرجات القليلة قافزا أتلفت ورائى كالمطارد ٠

فجأة ملأ سمعى ضجيج محرك السيارة ٠ لقد عاد ٠ بدأ يطلق نفيره بقوة ٠ يدى تبحث عن ثقب المفتاح ٠ النفير يلح وأنا أبحث عن الثقب فى لهفة ٠ النفير يدوى رهيبا ٠ المفتاح يصطك بكل مكان ماعدا ثقب المفتاح ٠ بدأ السائق ينادى ٠ يزأر كحيوان مفترس :

ـ ياأستاذ ٠٠ لك ثلاثة قروش باقية ٠٠ !

صفقت الباب ورائى بقوة ، فى ثوان كنت قد خلعت ثيابى ، وطوحت بها ، وقفزت الى سريرى ، وأحكمت الغطاء حولى ، ومازال السائق يزأر :

ـ ياأستاذ ٠٠ لك ثلاثة قروش باقية ٠٠ !

تشبثت بالغطاء وأنا أرتعد ٠ أحاول أن أهوى الى قاع اللا وعى لأنجو ٠

هدر صوت العربة راحلا ٠ أحسست بالخلاص ٠ لابد أن الشارع الآن ساكن تماما ٠

عيناى مغمضتان ٠ الحذر يضغط على وعيى ٠ يدوسنى بأقدام ثقال ٠ ذلك الامتداد الأسفلتى المضاء بمصابيح الطريق ٠ فتحات أبواب الدكاكين ٠ امتداد شاسع ، يوغل فى البعد حتى لأحس بالدوار ٠ مستطيلات واقفة متتابعة ، فيها مسوخ شائهة ٠ ناس ، أو هى جثث فئران هائلة متآكلة ٠ ظلام تام ماعدا هذه المستطيلات المضاءة التى تقف فيها هذه الأشكال السخيفة ٠ فى داخلى تسح دموع دافقة ٠

فى ذلك اليوم

شوكت أفندى مهندس التنظيم فى المدينة الاقليمية الصغيرة يقوم بجولته التفتيشية اليومية على الدوكار الحكومى وبجواره السائق عم ابراهيم · شوكت أفندى يسوق الدوكار ، يرطم بالعنان ظهر البغلة ، والبغلة تجرى بين دفتى العريش ، ظهرها ثابت وقوائمها تعمل فى الأرض عملا دائبا · يتفكر شوكت آفندى كيف أن البغلة مكتنزة لامعة لونها آدم قاتم كأنها زنجية قوية تسير على أربع · تأمل شـوكت آفنـدى الظهر اللامع باستغراق · ثم فجأة ألقى نظرة جانبيةعلى عم ابراهيم، رجل لايفارق رسـوخه أبدا · ضحك شـوكت آفندى

خجلا ، ثم أغرق فى الضحك • حينما ارتفع صوته جدا وجد أنه يضحك بلا معنى ضحكا أجوف •

عم ابراهيم ، ذلك الكيان الهرمى الضيق الكتفين المفرطح الأرداف ، الذى كأنما صنع خصيصا ليلائم كرسى السواقة ، ساكن راسخ ، ابهاماه متلاصقان كما لو كان يمسك بمقود البغلة ، وجهه هادىء الى درجة تثير الانقباض وتجعل الانسان عصبيا • يقول شوكت أفندى مرتبكا :

ـ كأن بها مسا هذه البغلة !

لكم عم ابراهيم غير مبال • تسحبت أذيال الكلمات حتى مات الخبر فى سكون • بقيت دمعتان معلقتان على رموش عينى شوكت أفندى • مسحهما بظهر يده • زحف على روحه وقار حزين • هز عنان البغلة متئدا • تنهد :

ـ لا اله الا الله !

ثم أغرق فى صمت عميق حتى مايحس بما حوله ، باستثناء جزء من انتباهه ـ صغير لكنه ثاقب ـ يرقب عم ابراهيم فى حذر •

★ ★ ★

قال شوكت أفندى لأبيه مرة بصوت خفيض متأثر :

ـ عم ابراهيم يحبنى ياأبى !

فى ذلك المساء كان الأب جالسا على السرير النحاس الهائل ذى الأعمدة الأربعة الشواهق ، عجوزا دقيقا كأنه قبضة يد على ملاءة السرير الناصعة • وكان شوكت أفندى جالسا على كرسى قريب منكس الرأس فى هيئة بنوية شاهدة بالتوقير المتناهى • تكلم الأب مرتلا الكلمات ، متمثلا بسطر من حكاية السيدة نفيسة بنت الحسين مع والى مصر المملوك :

ـ فاعترضت موكبه والخلق شهود تسأله : لما ؟ أجابها السلطان : بما !

امتلأ قلب شوكت أفندى باليقين من كلمات أبيه ، أغرق فى الحزن حتى وان قصر فهمه عن ادراك حكمة الكلمات • والأب أشرق وجهه بابتسام غريب ، وتحركت حبات المسبحة بين أصابعه العجوز •ورويدا رويدا نسى شوكت أفندى الأمر كله وهو يتابع الحركة الحذرة لشارب صرصور يختفى وراء الدولاب •

لكن شوكت أفندى فى ذات المساء أكد لامرأته وهو يلهث انفعالا :

ـ مرات كثيرة أوشكت أن أتورط فى جناية ، لولا أن كان هناك عم ابراهيم ٠٠!

وامرأة شوكت أفندى لها عينان سوداوان كبيرتان فزعتان ٠ ترقد الى جوار زوجها ، رأسها ساكن ملتصق بالمخدة ٠ شوكت أفندى يلح عليها، يؤكد حكايته بيديه وبكل ملامح وجهه ، الى أن يئس ، أما الزوجة فقد ارتعش جفناها وانكمش رأسها داخلا بين كتفيها كأنها سلحفاة خائفة ٠ ثم أغمضت عينيها ونامت ٠

عم ابراهيم راسخ على كرسى السواقة ٠ ابتسم له شوكت أفندى بتعقل وتكلم وهو ممتلىء رقة وعذوبة :

ـ أتعرف ياعم ابراهيم ٠٠ انه اليوم ٠٠ سبوع ابنتى ٠٠!

شفتا عم ابراهيم المزمومتان استراحتا فيما يشبه الابتسام ، مما جعل شوكت أفندى يندفع فى نوبة

ابتهاج كادت تقذف به من الدوكار ٠ طوح بمقود البغلة الى حجر عم ابراهيم ٠ أخذ الرجل العنان فاتصلت روحه الرصينة بروح البغلة الحرون ٠ شوكت أفندى مبهور الأنفاس ورأسه ملىء بصورة ابنته فى لفائفها الناصعة البياض ٠ وجهها مغمض ، العينين أحمر كجزرة مسلوقة ٠ احس شوكت بحب جارف نحو الطفلة ٠ تكلم منفعلا :

ـ أحبها بلا حدود ياعم ابراهيم ٠٠!

عم ابراهيم منصرف ، يهمس للبغلة بحبل العنان همسا منفعلا رشيدا ٠ أحب شوكت أفندى ابنته مرة أخرى باستئثار ، كحدأة تأخذ فرخها فى مخالبها ٠ نظر الى حيث يكون المارة فى الشارع الخالى وفى عينيه وحشية لبؤة أم ٠ مد يده الى حقيبته ٠ استخرج قلما من الصلب وكراسة كبيرة صفحاتها مقسمة الى مربعات، وبسطها على ركبتيه ، وظل يرسم ويخطط واهتزاز الدوكار يربك خطوطه ، وان لم يؤرق تفكره العميق ٠ يلوح بيديه فى الهواء مجسدا تصوراته ٠ ثم أخيرا و حزم أمر عم ابراهيم :

ـ الى شارع السكة الجديدة ·

باستسلام حول عم ابراهيم رأس البغلة، وباندفاع تكلم شوكت أفندى :

ـ سأقيم لها حفلة سبوع هائلة !

ملامح عم ابراهيم ساكنة خالية من أى تعبير ، لكن شوكت أفندى يتابع حديثه مبررا نفسه :

ـ انها أول خلفى !

والسائق بارد الهدوء مكأنه تمثال بازلت تتكسر عليه كلمات شوكت أفندى ، لكنه يتابع فى صوت مشروخ :

ـ أحبها بلا حدود ياعم ابراهيم !

البغلة برمة بأرض شارع السكة الجديدة غير المستوية ، ترفس برجليها وتضرب الأرض بيديها وتطوح برأسها الى الأمام جاذبة العنان من يد السائق عنيدة شكسة · عم ابراهيم يجيب البغلة بكلمات العزاء وهو يميل مع الدوكار الذى يترنح بين الحفر ، بينما يتقافز فى مقعده كيان شوكت أفندى الخفيف ·

وقف الدوكار أخيرا أمام باب الدكان · فى نافذة العرض الزجاجية كرسى كبير مذهب وأكداس مصفوفة من فناجين القهوة وكئوس البللور وأباريق الفضة على منضدة من الرخام قائمة أمام خلفية من قماش الخيام المقسم الى زخارف هندسية ملونة وآيات قرآنية بجميل الخطوط · صاحب الدكان واقف على الباب محروق الوجه ناشف كفرع السنط · قفز مهللا حالما أبصر بالدوكار قادما :

ـ أهلا يابك ·· يامئة مرحب ·· نورت السكة الجديدة !

قال شوكت أفندى مخافتا :

ـ مرحبا بك ياحج درويش !

أمسك الرجل يد شوكت أفندى الطرية فى يده المعروقة كمخلب حدأة وقبض عليها بشدة وهو يركز بصره فى عينيه · ليس للرجل عينان ، بل ثقبان يشعان بريقا مخيفا · تدفق مكلما شوكت أفندى :

ـ والله العظيم انك لمنصور على أعدائك ياشوكت بك ! أرانى الله ذلك فى المنام !

حاول شوكت أفندى دون جدوى تخليص يده من مخالب الحاج درويش • يتدفق الرجـل حاكيا متجاهلا المحاولة :

ـ فليجعل الله رؤياى من نصيبك يابك !

قال شـوكت أفنـدى كأنه يتوسل ، عاجـزا عن تخليص يده :

ـ أريد مئة لمبة وخمسين منديلا ••!

ترك الرجل يد شوكت أفندى فجأة وصفق بيديه صفقة مدوية ، دائرا بجسده كله على كعب حذائه دورة كاملة بقوة جعلت جبته تنتفخ ويبدو من تحتها قفطانه هتف صارخا :

ـ لقد تأولت رؤياى ••!

ثم واجه شوكت أفندى ويداه طائرتان فى الهواء فى هيئة دعائية وتكلم مرتلا :

ـ حلمت بأنى أراك وسط نور •• وكأنما انفتحت أبواب السماء فى ليلة القدر ••!

ثم مال براسه داخل دكانه وصاح :

ـ ياولد ••!

ثم استدرك ملتفتا الى شوكت أفندى يسأله :

ـ الليلة ان شاء الله ••؟

رد شوكت أفندى شاردا :

ـ ان شاء الله ••!

هز الحاج درويش راسه ملبيا مشيرا بسبابته مرتين الى وجهه أسفل ثقبى عينيه وهو يؤكد :

ـ من عينى هذه •• ومن عينى هذه •• وسأزين البيت بالمصابيح والمناديل بنفسى !

رد شوكت أفندى بكلمات ناعمة متعثرة :

ـ حفظك الله ياحاج ••!

مخلبا الحاج قائمان مثـل رأسى أفعيين ، يدوران يبحثان عن يدى شوكت أفندى •

يكلم الرجل شوكت أفندى :

ـ كنت أريد أن أمر بك اليوم فى مكتبك !

شوكت أفنــدى يهرب بيديه • يرد وهو فى غاية التوتر :

ـ خيرا ان شاء الله ••!

اكتسب وجه الحــاج درويش قسوة رهيبة وهــو يقول :

ـ كتبــوا الى يطلبون منى أن تتــوافر الشروط الصحية فى دكانى ••!

ثم أصبح صوته صراخا مجلجلا وهو يقول :

ـ أنتم يامــوظفى المجلس البــلدى ليس لديــكم مايشغلكم سوى تصديع الناس بمكاتيبكم الخرقاء ••!

ثم دفع بنصفه الأسفل الى الأمام فى حركة سوقية وهو يردف :

ـ أى شروط صحية تلك التى يجب أن تتوفر فى دكان فراشة ••!

فى هذه اللحظة كان قد نجح فى اقتناص يد شوكت فأطبق أصابعه حولها ، وباليد الأخــرى قبض على قمة

الكتف وأنفاسه تلفح وجــه شــوكت الذى بدأ يلهث ودرويش لايفلته • تكلم شوكت من وسط ارتباكه :

ـ دع أمر هذا الخطاب على أنا ياحاج درويش !

عصر الحاج اليد الطرية فى مخالبه وهو يقول :

ـ ليس لنا فى المجلس غيرك ياشوكت أفندى ••!

نبتت حبات دقيقة من العرق فى أعلى جبين شوكت أفندى • تخلص هاربا وهو يردد بشكل آلى :

ـ ليس لنا جميعا الا الله ••!

ثم قفز الى العريش واستقر على الكرسى بجوار عم ابراهيم •• رطم هــذا ظهر البغلة بالعنان ، غرست قوائمها فى الأرض وجهدت حتى انتزعت الدوكار من ثباته • بدأت العجلات تكركر على الأرض بنشاط •

تأمل شــوكت أفنــدى ظهر البغلة اللامع • أحس بشبق غريب للفعل • تناول العنان من يدىعم ابراهيم• توترت البغلة اذ أحست به يسوق • وهو تناول السوط من مجاله الأسطوانى المثبت فى العريش • ساط ظهر البغلة فجن جنونها وطار الدوكار • واصــل شوكت

أفندى سوط ظهر البغلة متأملا لمعته الدهنية · يرص الضربات الواحدة بجانب الأخرى بأناة · ثنيتاه تأكلان فى لحم شفته السفلى · رأى ذبابة كبيرة تندفع تحط على كفل البغلة ، تستل خرطومها الأحمر وتغرسه فى لحم الحيوان بنهم · تأمل شوكت عملية امتصاص الدم بشغف ورعدة · فجأة رفع السوط وفتك بالذبابة · ثم ألقى بالعنان الى السائق وهو قانط تعب يقول آمرا :

ـ الى سوق الخضار ··!

★ ★ ★

فى نهاية الشارع سوف يجد (مكتب الفن الحديث)· هناك سوف تكون نرجس امرأة الشرانى · فى داخله يهتف صوت مجلجل :

ـ يالها من امرأة ··!

اختلطت فى ذهنه مشاهد مضاءة بكهرباء باهرة · مشاهد مضطربة بفعل كؤوس خمر رخيصة · امتلأ جوفه بالضحك من ذكرى كل هذه المشاهد · انه فى مثل

هذه المناسبات يكون أكثر الناس مرحا وزياطا · كلم صورة لعم ابراهيم فى خياله ، دون أن يلتفت الى السائق الجالس بجواره :

ـ اننى أحب الهيصة !

استخفه حنين غامر نحو ابنته · سمع صوته يجلجل داخله :

ـ فليكن حظها سعيدا ··!

ثم طن فى داخله الصمت · انقبض قلبه · انها بنية · كيف يكون للبنت حظ · خطرت صورتها فى خياله كبيرة فاتنة تتأود · كادت تصوراته تدفعه الى الجنون · مسحها من ذهنه بقوة · المسائل معقدة · على كل حال سيتفق مع الشرانى وتكون ليلة سبوع بنته ليلة أنس ·

★ ★ ★

قفز من الدوكار منتشيا كديك · مشى عريض الكتفين الى مكتب الفن الحديث · كانت نرجس جالسة على بلاط الدكان ترعى بضعة كتاكيت تدور حول

مسقاتها الصغيرة فى بقعة شمس مستديرة على الأرض • المرأة لحيمة داكنة تبدو ثنيات جسمها تحت ثوبها الضيق المهلهل • انتصب شوكت افندى واقفا وسط الدكان ونرجس عند أقدامه • ابتسم يراقبها تبذل جهدا كبيرا لتقف • تلهث فى جهدها مرحبة :

ــ أهلا شوكت أفندى •

ثدياها الكبيران بارزان من طوق ثوبها تحت عينيه، داكنان تسرح فيهما عروق خضراء • شعرها خشن هائش ضائق بالمنديل المعصوب عليه • تفكر شوكت أفندى كيف تعد نرجس نفسها لليالى ، تطلى وجهها بالمساحيق وتغرق شعرها بالزيت العطرى ، وتلبس الحرير والترتر وتغدو كالسنيورة •

هبشت نرجس الشرانى الذى كان نائما على كنبة بعرض الدكان حتى هب قاعدا • فرك عينيه ودار بهما فى أنحاء الدكان حتى أبصر شوكت آفندى • حياه :

ــ أهلا شوكت أفندى •

على طاولة بجوار الحائط كان ثمة كومة من قشر الفول الأخضر وطبق به بقايا جبنة بيضاء ثم قطع خبز وفتات • أرض الدكان وسخة من زرق الكتاكيت •

دار الشرانى بعينيه فى هذا كله وكلم امرأته ضائقا :

ــ اكنسى ياامرأة هذه الوساخة بعيدا ••!

تدخل شوكت آفندى مهونا الأمر على الشرانى :

ــ لاتشغل بالك ياأسطى ••!

ثم التفت الى نرجس :

ــ ولاتتعبى نفسك ياست ••!

وريثما يفرغ الشرانى من فرك عينيه المحمرتين وتسوية شعره الهائش ، وتفرغ نرجس من كنس قشر الفول ، دار شوكت بعينيه فى الدكان ملاحظا الآلات المعلقة على الحيطان ،والصور المأخوذة من بعض الأفراح • تأمل الست نرجس فى الصور ترقص متمايلة على المتفرجين النشوانين • نبهه الشرانى من شروده مع لصور قائلا :

ــ سلامات ياشوكت أفندى ••!

ادرك شوكت أفندى نغمة التساؤل فى ترحيب

الشرانى فتكلم موضحا سبب زيارته :

ـ العقبى لك ٠٠ الليلة نحتفل بسبوع بنتى ٠ مصابيح ومناديل ٠٠ وآلاتية ٠٠!

هتف الشرانى مبديا استعداده :

ـ نحن دائما فى خدمتك ياشوكت أفندى !

قال شوكت أفندى موضحا الناحية المالية فى الاتفاق :

ـ ولكم ماتحصلون عليه من نقوط المعازيم ٠٠ لا غير !

ثم أردف بعد لحظة صمت شاملة :

ـ تعرفون أن أقاربى كثيرون وأصحابى بلا عدد والكل محمل بجمائلى ٠٠!

تدخلت نرجس مسرعة نافية أى تردد من ناحية الشرانى :

ـ لياليك ندا وحياة النبى ياشوكت أفندى !

عند ذلك اضطر الشرانى للموافقة ٠قال مغلوبا :

ـ على العين والرأس ياسى شوكته ٠٠!

سوى شوكت أفندى معطفه مستعدا للانصراف وهو يقول :

ـ لن أوصيك ياسى محمود ٠٠ التخت بتمامه ٠٠ كل الآلات !

قال الشرانى مجاملا :

ـ لاتوصنى ٠٠ البنت بنتى ٠٠ ربنا يجعلها مسعدة ٠٠!

اندفع شوكت أفندى خارجا ٠ واذ يضع رجله نازلا على أول درجة ، التفت دون قصد ملقيا نظرة خاطفة على الدكان ٠ الزوجان يعودان كل الى وضعه الأول وعلى وجهيهما تعبير متشابه من الاشمئزاز واليأس ٠

عم ابراهيم والدوكار والبغلة فى حالة سكون تام كأنهم مرسومون على الحائط المقابل ٠ داس شوكت أفندى على السلم صاعدا الى مقعده بجوار السائق ٠ اهتز المشهد تحت ثقل جسمه ٠ بعد جهد بدأت العجلات تكر على الأرض المرصوفة بحجارة ناتئة ٠

★ ★ ★

نشبت التساؤلات فى عقل شوكت أفندى · أيبارك ابنته فى سبوعها بالآلات والرقص والخمر ··؟! ان البنية قد تموت فى أية لحظة ·· أبهذا تذهب الى ربها؟ شيء مخيف ! كلم شوكت صورة لعم ابراهيم فى خيال دون أن يلتفت للسائق بجواره :

ـ أتعرف ياعم ابراهيم أننى تلقيت العهد على يد شيخ طريقتنا ··؟

كان ذلك بعد أن رجع من الشام · هناك اشتغل فى رصف الطـرق مع الجيش الانجليزى ، وقضى مع تجار المخدرات ومهربى السـلاح زمنـا عجيبا لم يبق منه سوى ذلك الصندوق المترب المليء بالرصاص وسوى المسدسان تحت السرير فى غرفة نومه حيث ترقد على السرير زوجته وابنته الوليدة · خنقت أصابع الخوف الحديدية قلبه ·

انه فى ذلك اليـوم أراد أن يتوب · وكان الشيخ جالسـا على تلك الكنبة فى غـرفة الجلوس فى بيتهم متكئا على نمرقة وعمامته الخضراء مائلة على جبينه · يالها من عمامة خضراء أنيقة ، يالنبالة الجبين ووسامة

العينين والحاجبين ودقة الأنف وثراء الشـفتين وريح الرجولة الآسر فى تناسق الملامح وامتـلاء الكتفين · جلس شوكت على أقصى طرف الكنبة محاذرا فى هيئة توقير متناهية يرجو متذللا صادق التوبة عازما على بدء حياة جديدة :

ـ وحياة النبى ياعمى ·· وحياة جدك الرسول ·

والشيخ صامت لاينبس ببنت شفة · تسرح عيناه فى سماء الغرفة وأصابعه المنمقة تداعب فى أناة حبات مسبحة صـغيرة من الكهرمان الآحمر تتدلى منها حلية فضية · يواصل شوكت أفندى توسله :

ـ والنبى ياعمى ·· أنا عارف أنك تخاف على ·· تخاف ألا أصون العهد فينكسر ظهرى بذنبى ·· لكن ياعمى ·· أنا أتوب على يديك ·· أريـد أن أصـون نفسى بالعهد ··!

والشيخ صامت تنام رموشه الكثيفة على وجنتيه فى صفاء · أخيرا وبعد الحاح طويل من شوكت أفندى اعتدل الشيخ فى مجلسه قائلا :

ـ طيب ياشوكت أفندى ··!

★ ★ ★

الدوكار يمشى الهوينـــا • العنان يمتد بين رأس البغلة وابهامى عم ابراهيم ، ويوصـــل بينهما تفاهما غامضا غريبا • يحس شوكت أفندى أنه منفى • يكلم عم ابراهيم متوسلا :

ـ تعـرف ياعم ابراهيم ·· لو أنك رأيت شـيخ طريقتنا ماشبعت منه أبدا ·· ياسـلام ·· يصغرنى بعام ·· وأرى فيه أبا لى !

وقبل أن يـرى انعكاس كلماته على عم ابراهيم هتف به آمرا :

ـ على المحطة ياعم ابراهيم !

عند المحطة قِفز شوكت أفندى من الدوكار وصعد السلم جريا • دخل غرفة الهاتف وحيا تادرس أفندى ملهوجا • رفع الرجـل له عينين مربضتين فى وجـه متهدل • طلب له النمرة وأشار له على زكن الغرفة • رفع شوكت أفندى المسـماع وبدأ يصيح صـوته يملأ الفراغ الصامت • تادرس أفندى تتدلى شـفته السفلى وخدوده فى فزع •

شوكت أفندى يزعق :

ـ أيوه ياعمى ·· أنا شوكت ·· أهلا ياعمى ·· يقبل الأيادى ·· لأ ·· سبوع بنتى الليلة ·· لابد من حضورك ·· والدراويش ·· باذن الله ·· ضرورى ·· حاضر ·· الحذر من التأخير !

فى داخل شـوكت أفندى رضاء صـوفى دامع ، نفس الاحساس الذى أغرق روحه يوم أخـذ العهد • يتأمل وجه تادرس أفندى المفزوع ويكلمه بعذوبة :

ـ أريد مكالمة أخرى ياعم تادرس !

وبعد أن يكلم أخته يؤكد عليها ضرورة حضـور سبوع بنته الليلة يضع المسماع واثقا أنه سيكون سبوعا مباركا ، فهو أيضا سيرى أخته بعد مدة من التجافى • انتشى وهو يحس طعم ضمها الى صدره بعد كل هـذا الغياب • تفكر أن الشيخ أيضا سوف يفرح بلقائها • انغرست الفـكرة فى روحـه كحمة العقرب • يمشى السم فى عروقه الى قلبه • وجع يذهله عما حوله • نزل سلم المحطة العالى درجة درجة • الدوكار فى القـاع ينتظره • يساق اليه خائفا •قال لعم ابراهيم متوسلا:

ـ أوصلنى الى البيت ··ثم عد أنت بالدوكار·· !

★★★

وفى ذلك المساء كانت الردهة فى بيت شوكت أفندى متقدة بضوء أبيض باهر لايترك، آثرا لظل . محمود الشرانى يضع القانون على ركبتيه ويتقدم فرقة الآلاتية ، تكاد عروق رقبته تتفجر من انهماكه فى الغناء . نرجس متلألئة فى الضوء تملأ الدنيا رقصا . الناس يلصقون القروش على جبينها ويختلسون القرصات من أردافها . عم ابراهيم يداه فى حجره ، ابهاماه متلاصقان ، ينظر الى كل شىء فى سكون بازلتى عنيد . ينقض عليه شوكت أفندى ، فى يده كأس وجبينه ملتهب مندى بالعرق :

ـ نورت الليلة ياعم ابراهيم ..!

ودون أن ينتظر يقفز مبتعدا . لايستقر فى مكان، يوزع التحيات ويختلس القرصات وهو ممتلىء باحساسات داعرة عارمة . هذه الردهة المليئة بالضوء والموسيقى والزياط والغناء والنشوة موجودة فى صميم وجدانه . لكن تلك الغرف القليلة الضوء المحيطة بالردهة تلح عليه بظلالها الشبحية . يمرضه القلق حتى يشمئز من كل مايرى حوله فى الردهة التى تضج بالضوء والزياط .

يقطع الصالة وثبا ويفتح بابا فى طرف قصى منها. تسقط نظراته على جدار أصفر شاحب من الضوء القليل . بعد لحظات يميز بضعة رجال يلبسون جلابيب ريفية ويتعممون بشيلان وسخة على تقايا مؤطرة بالعرق ويترنحون بأبيات من بردة الأباصيرى . هؤلاء هم دراويش الشيخ . حينما رأوا شوكت قطعوا القراءة ورفعوا اليه عيونا مداهنة ، وهتف واحد منهم :

ـ مبروك ياشوكت أفندى .. ربنا يجعلها بنية مسعدة !

لم يرد شوكت . شرد قليلا متفكرا ، أتكون البنية مسعدة اذا تزوجت رجلا لايسألها عن شىء ؟ الدراويش يواصلون تحيته :

ـ عقبى لسبوع الولد ان شاء الله !

تقزز شوكت من الوجوه التى تسيل مداهنة . خرج الى الصالة . ضاع الخمار من رأسه وامتلأ بيقظة متوترة .. دخل على امرأته فى غرفتها . مشى فى الضوء القليل الى السرير . جلس على حافته . انحنى على اللفائف يتأمل وجه ابنته . مغمضة العينين . يحدق

فى وجهها بلا معنى · زوجته ترقبه فزعة العينين · نظر اليها نظـرة محملة بالكراهيـة العميقة · ود لو يسحقها · قام اندفعخارجا · عرج على المطبخ · حماته هنـاك ترقب جمـاعة من الحلل تحملها عـدة مـواقد بريموس على رؤوسها · عزمت عليه بقطعة من اللحم، رد يدها قانطا ونفسه زاهدة ·

عاد مرة أخرى الى ضجيج الصالة · ألقى بنفسه على نرجس · قناة من العرق تنحدر على صدرها وتغيب فى فرجة داكنة غير مطلية بين ثدييها · ارتد على عقبيه يكاد يقىء أمعاءه تقززا · الوشوشة من الغرف المعتمة حول الردهةالمضيئة تتسرب تحت ضجيج الردهة وتسلبه هدوء روحه · من الخير أن يذهب ويرى ماذا هناك بدلا من أن يصاب بالجنون · مشى ، جسده متين ووقع أقدامه ثقيل على البلاط · وضع يده على مقبض الباب وفتحه · لم ير شيئا لأول وهلة ، لكنه أحس بقوة أن ماتحتويه هذه الغرفة مختلف تماما عما فى الصـالة · نوع من السرور أصيل رائق ·· قاتل ·

تمالك نفسه · الشيخ متكىء على الكنبة وعمامته موضوعة الى جواره · شعره حالك السواد مفروق لامع · وجهه قوى السمرة متورد بالسرور · الأخت جالسة عند أقدامه ووجهها مشرع اليه لضـحكاتها رنين أجـراس فضية · الزوج جالس على أقصى طـرف الكنبة خارج دائرة الاهتمام يبتسـم مداهنـا · الأب على السرير متداخل فى نفسـه متشبث بمسبحته على وجهـه رعب غامض ·

بقى شوكت واقفا عند الباب يرقب أخته والشيخ· حينما تنبها له ابتسم محييا · ضـاعت ابتسـامته فى لا مبالاتهما الصادقة · نادى شوكت على أخته وخطـا خارجا من الغرفة يقف على الباب منتظرا · جاءت له · وقفت تحت بصره · من الغضب لايراها · ألم سرطانى يفتت جسده · سأل شوكت أخته مرتجفا :

ـ ما الذى يدور ··!؟

أجابته دمثة عذبة :

ـيدور ذلك الذى رأيته يدور !

فتح عينيه · طوق ثوب الأخت يبدى بعض ثديها أبيض ناصعا · مد يديه الى رقبتها ليخنقها · تحركت

حركة لينة مفلتة منه دون جهد · فتحت الباب ودخلت وأغلقت وراءها ·

لدقيقة بقى شوكت وراء الباب المقفل يرتعش والدموع تنهمر فى داخله · فجأة اندفع الى غرفة نومه · انحنى يبحث تحت السرير الذى تنام عليه زوجته وابنته · أخرج الصندوق الملىء بالرصاص وعلى وجهه المسدسان · أمسك المسدسين فى يديه واندفع ليخرج · قفزت زوجته من السرير وتشبثت به · صاح محاولا التخلص من قبضتها :

ـ اتركينى !

لكنها ممسكة به مستميتة عليه · جاءت الحماة على الصوت تجرى من المطبخ تصيح به :

ـ اخز الشيطان ياشوكت ·· يابنى !

يواصل شوكت محاولاته لتحرير نفسه من قبضة زوجته · فجأة تلتقى عيناه بعينى حماته · انها عارفة وساخرة ومزدرية بدرجة لايحتملها رجل · انهار فى وقفته · تدلى ذراعاه وتراخت قبضتاه عن المسدسين

فسقطا ارتطما بالبساط رطمة واحدة مكتومة · لم يأبه لهما أحد · الحمد لله كانا غير محشوين ·

فى الصباح قام شوكت من النوم متعبا مهدود القوة · وضع المنشفة على كتفه وخرج قاصدا دورة المياه · ثم عن له أن يجوس فى البيت · الكل نائمون · فى الردهة مازالت بقايا الليلة الماضية · لمبات مطفأة وكراسى مبعثرة · كرسى عم ابراهيم لم يتزحزح عن مكانه وكأن الرجل مازال جالسا لايؤرق رسوخه شىء · استدار شوكت على عقبيه ومضى الى الحمام ·

نظر فى مرآة حوض الغسيل · وجهه لا لون له · أو هو شمعى باهت · لو كان أكثر دكنة · لو كانت ملامحه أكثر قوة · لو كان شعره أسود حالكا · نكس رأسه وأسلم لسيال الماء البارد من الصنبور يدين ميتتين ·

الفهرست





هـذا هـو العـام السـابع من عمـر «مكتبـة الأسـرة» ..
ومنذ سنوات طـوال لم يلتف النـاس حـول مشـروع ثقافى
كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقـافى الضخـم حتى
أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام.
واستجبنـا لهـذا المطلب الجماهيـرى العـزيز إيمـانًا منـا
بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى
إعـادة صيـاغة وتشكيـل وجـدان الأمـة واستعـادة دورهـا
الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبـة الأسـرة» .. أن تعيـد الـروح إلى
الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافـة فى زمـن الإبهـارات
التكنولوجيـة المعاصـرة.. وهـا نحـن نحتفـل ببـدء العـام
السابـع من عُمـر هـذه المكتبـة التـى أصـدرت (١٧٠٠)
عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليـون نسخة» تحتضنهـا الأسـرة
المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتـراثًا لايبلى من أجـل
حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطـن
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع



١٥٠
قرش